

لورنس العرب

القيادة، الاستراتيجيات، الصراعات

تأليف:

دافيد مواري

ترجمة وإخراج:

مركز الخطابي للدراسات

alkhattabirw

لورنس العرب

القيادة - الاستراتيجيات - الصراعات

تأليف: دافيد موراي

ترجمة مركز الخطابي للدِّراسات



2021 - 2020

الفهرس

مقدمة المركز

تكمن أهمية هذا الكتاب في أنه يغطي جانباً مهماً في الحرب العالمية الأولى بين القوات العربية المدعومة من بريطانيا ضد الخلافة العثمانية، كما يتناول بعض التكتيكات الحربية التي استخدمها لورنس أثناء ما سمي بالثورة العربية الكبرى، وميزته أنه يتناول هذه التكتيكات أولاً من باب توثيق الأحداث بالوقائع التاريخية الدقيقة والتواريخ المفصلة، مع توضيح ذلك بالخرائط. كما يتناول أيضاً كيف كان لورنس يستفيد من حرب العصابات ضد الدولة العثمانية، وماهي نقاط الضعف التي كان يركز عليها.

ملاحظات حول الترجمة:

1 - لقد قمنا بإعادة تصميم جميع الخرائط بعد ترجمتها لتكون رموزها واضحة باللغة العربية، كما أننا أضفنا العديد من الصور الموضحة التي لم تكن موجودة في الأصل، وذلك بهدف المزيد من الشرح والتبيان للمفردات والمواقع التي تتعلق بالعمليات العسكرية المذكورة في الكتاب.

2 - إبقاؤنا لمعاني بعض الكلمات كما هي لا يعني أبداً موافقتنا على ما تضمنته من ذم أو مدح، ولأن الأمانة تقتضي منا نقل الكلام كما هو؛ لم نقم بإعادة صياغة المعاني التي تخالف قيمنا أو مواقفنا.

3 - جميع الهوامش التي أسفل الترجمة هي من إضافتنا.

وختاماً نتقدم بجزيل الشكر لكل من قدم المساعدة أو ساهم بهذا العمل، ونسأل الله له القبول.

المقدمة

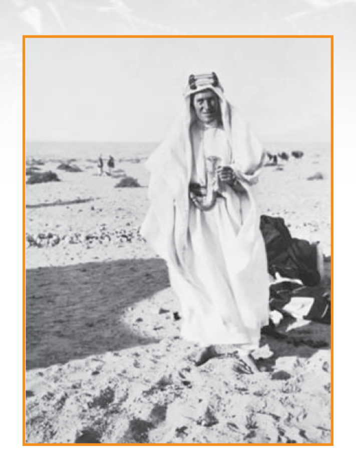
توماس إدوارد لورنس (1888-1935)، أو «لورنس العرب» كما هو معروف بشكل عام، لا يزال واحداً من أكثر الشخصيات شهرةً في القرن العشرين.

على الرغم من أنه لم يكن جندياً نظامياً، إلاأن مآثره في الحرب العالمية الأولى كان لها تأثير كبير حول نتيجة الحرب .

في الواقع، لقد لعب هذا الجندي الهاوي دوراً حاسماً في إنشاء الشرق الأوسط الجديد. لم يوحِ شيء في حياته المبكرة بأنه سوف يتفوق في أي مهنة عسكرية. وعند اندلاع الحرب ، بدا أن لورنس (المعروف عادةً باسم «نيد» بين عائلته وأصدقائه) كان متجهاً للعمل كعالم آثار، كما اعترف للمقربين منه برغبته في ممارسة مهنة الكتابة أو النشر؛ لكن بعد التطوع للخدمة العسكرية في عام 1914، خدم لورنس في اختفاء نسبي حتى عام 1916.

أدت الثورة العربية التي اندلعت في ذلك العام إلى اندفاع لورنس نحو مرحلة أكثر دراماتيكية من النشاط العسكري، ليجد نهايته مرمي في بؤرة الأضواء العامة بسبب مآثره في زمن الحرب.

ومع نهاية الحرب، تمت ترقيته إلى رتبة عقيد وحصل على أوسمة عالية. كان معظم أقران لورنس على يقين أنه سيحظى بمهنة سياسية أو عسكرية مؤثرة، لكن بدلاً من ذلك، اختار لورنس العزلة، مما زاد من الانبهار العام به، لتصبح مكانته كواحد من أكثر الشخصيات الغامضة في عصره. لقد كان لورنس رجلاً استثنائياً، رجلاً وجد نفسه وسط أحداث غير عادية.



توماس إدوارد لورنس (1888-1935)، عُرف لاحقاً باسم «لورنس العرب». تم تصويره هنا في العقبة عام 1917 وهو يرتدي رداءً عربياً. هكذا يصوره معظم المحبين للثورة العربية.



عنـد انـدلاع الحـرب العالميـة الأولـى احتفظـت الإمبراطوريـة العثمانيـة بأراضـي كبيـرة في أوروبـا وآسـيا والجزيـرة العربيـة، حيـث كانـت تحدهـا روسـيا وبـلاد فـارس والمحميـات البريطانيــة في عــدن والكويــت والبحريــن، ثــم مــع تقــدم قــوات الحلفــاء إلــى الأراضــي العثمانيــة منــذ عــام 1914، لــم تكــن الحمــلات في مواقــع مثــل ســيناء وجاليبولــي[1] وبـلاد مـا بيـن النهريـن ناجحـة، كمـا ظلـت أيضـاً السـيطرة العثمانيـة على أراضيهـا في شـبه الجزيـرة العربيـة كمـا هـي. لكـن قبيـل انـدلاع الثـورة العربيـة عـام 1916، عـزز القـادة العثمانيـون قواتهـم في شـبه الجزيـرة العربيـة بينمـا كان تجمـع القـوات العربيـة الرئيسـية بالقـرب مـن مكـة والمدينـة.

1 حملـة جاليبولـي أو حملـة الدردنيـل أو معركـة جنـاق قلعـة هـي حملـة عسـكرية شـنتها قـوات بريطانيـة وفرنسـية مشـتركة خـلال الحـرب العالميـة الأولـى بهـدف احتـلال العاصمـة العثمانيـة إسـطنبول: دارت معـارك الحملـة في شـبه الجزيـرة جاليبولـي على مضيـق الدردنيـل عـام 1915، بـاءت جهـود الحملـة بالفشـل وقتـل مـا قُـدّر عـدده بحوالـي 55 ألـف جنـدي مـن قـوات التحالـف (بريطانيـا، أسـتراليا، نيوزيلنـدا، فرنسـا) وحوالـي 90 ألـف جنـدي عثمانـي ومئـات الآلاف مـن الجرحـى مـن الطرفيـن. (ويكيبيديـا)

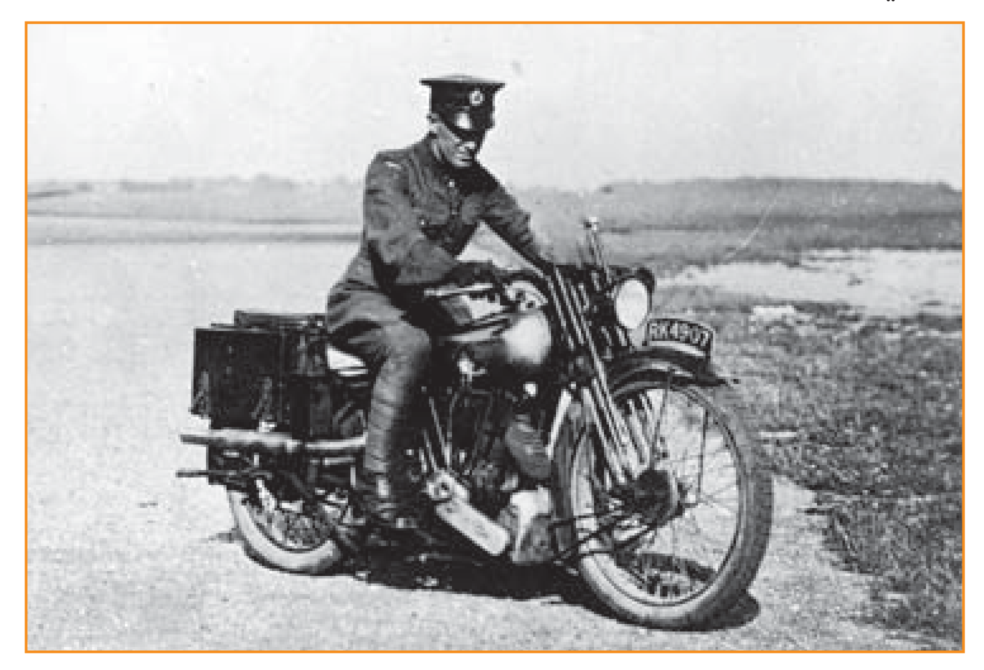
بعـد اطـلاع لورنـس علـى الوضـع في الجزيـرة العربيـة عـام 1916، أظهـر قـدرةً عاليـة علـى تقييـم مختلـف القـادة العـرب؛ وكان قـادراً بعـد ذلـك علـى تشـجيعهم لدعـم رؤيـة الحلفـاء باتجـاه الثـورة؛ كمـا أظهـر لورنـس أن لديـه فهمـاً غريزيـاً تقريبـاً لحـرب العصابـات. رغـم أنـه لـم يتلـق سـوى القليـل مـن التدريـب العسـكري الرسـمي، فقـد اسـتطاع تحديـد نقـاط ضعـف عـدوه بشـكلٍ صحيـح؛ وابتـكار أفضـل التكتيـكات التـي يجـب اتباعهـا في الهجـوم.

كان اثنـان مـن إخـوة لورنـس علـى وشـك المـوت في الجبهـة الغربيـة؛ وعلـى الرغـم مـن أنـه نجـا مـن رعـب حـرب الاسـتنزاف في نفـس مـكان العمليات،(مـافي ترابـط بجمـل) إلا أنـه خـرج مـن الحـرب وقـد أُصيـب بأضـرار بالغـة، واحتفـظ في المقابـل بالأمـل لتحقيـق اسـتقلال عربـي أكبـر. لكـن بعـد مؤتمـرات السـلام التـي تلـت الحـرب ازدادت خيبـة أملـه، ثـم انسـحب فعليـاً مـن الحيـاة العامـة بحلـول سـنة 1922.

الجديـر بالذكـر أن لورنـس قـد كـرس نفسـه لاحقـاً لمشـاريع أخـرى مثـل تطويـر مركبة إنقـاذ عاليـة السـرعة لسـلاح الجـو الملكـي البريطانـي، ليعـزل نفسـه بذلـك عـن الحيـاة العامـة. لقـد كان لورنـس أيضًـا مهووسـاً بالسـرعة، وكان يمتلـك سلسـلة مـن دراجـات ناريـة Brough خـلال عشـرينيات وثلاثينيـات القـرن الماضـي، ثـم تقاعـد مـن سـلاح الجـو الملكـي البريطانـي لبضعـة أشـهر فقـط قبـل وفاتـه في عـام 1935.

قليـل مـن قـادة الحـرب العالميـة الأولـى تمتعـوا بهـذا الاهتمـام بعـد وفاتهـم، بينمـا اسـتمر الانبهـار بهـذا الجنـدي الباحـث لدرجـة أنـه لا يمـر عامـاً إلا ونشـرت دراسـة جديـدة عـن حياتـه، ولقـد كَتـب عنـه لدرجـة أنـه أصبـح مـن الصعـب الحصـول علـى إحسـاس حقيقـي بـ"لورنـس" الرجـل، والـذي صعـب الأمـر أكثـر شـخصية لورنـس المعقـدة. أمـا مـن الناحيـة العسـكرية البحتـة، فإنه عُـرف كقائـد خبيـر في العمليات غيـر التقليديـة وعمليـات حـرب العصابـات؛ وليـس مـن المسـتغرب أن تصبـح مسـيرة لورنـس تحـت الأضـواء مـرة أخـرى في الآونـة الأخيـرة في الوقـت الـذي تقـوم فيـه قـوات التحالـف بمكافحـة التمـرد في العـراق وأفغانسـتان.

على الرغم من أن لورنس حارب في سياق عالمي مختلف تماماً عن الوقت الحالي، ولكن مسيرته العسكرية والسياسية لازالت تلقى مزيداً من التقييم، كما بدأ جيل جديد من الجنود المحترفين بدراسة مسيرة وكتابات هذا الجندي الهاوي.



لورنس على إحدى دراجاته النارية Brough التي أخذها أثناء تواجده في سلاح الجو الملكي البريطاني بكرانويل.[1] خلال الحرب العالمية الأولى خرج لورنس من العزلة النسبية وأصبح أحد الشخصيات البارزة في القرن العشرين؛ كما أنه سيبحث عن العزلة مرة أخرى في حياته اللاحقة. (مكتبة بودليان، أكسفورد).

1 المركز: هي محطة تابعة لسلاح الجو الملكي في لينكولنشاير بإنجلترا، بالقرب من قرية كرانويل، بالقرب من سليفورد. هي موطن للكلية الملكية للقوات الجوية، التي تدرب ضباط سلاح الجو الملكي وطاقم الطيران الجديد.

السنوات الأولى

ولد توماس إدوارد لورنس في "ترامادوك" شمال ويلز يوم 16 أغسطس 1888، وكان ذلك في العقود الأخيرة من العصر الفيكتوري[1] في ظروف عائلية بعيدة كل البعد عن الأرثوذكسية. كان والده السير "توماس روبرت تيغي تشابمان "من ساوث هيل، ديلفين، وستميث في أيرلندا، وكان هذا الرجل الأنجلو أيرلندي هي ثمرة عائلة مرموقة عاشت في إيرلندا منذ المزارع الإليزابيثية[2].

سارة لورنس هي والدة «لورنس»، وهي مربية إسكتلندية المولد دخلت منزل السير توماس تشابمان عام 1879؛ لتعمل كمعلمة ومربية لبناته الأربع. لم يُعرف بالضبط متى بدأ الزوجان علاقتهما، لكن تشابمان سيترك في النهاية زوجته وأطفاله ومنزل أجداده ليهرب مع سارة



صورة غير منشورة من قبل لعائلة تشابمان، محل الإقامة في ساوث هيل، دلفين، ويستميث. ترك والد لورنس، سيد توماس تشابمان هذه العزبة ليكون مع سارة لورنس، المربية لأطفاله. المرأة في هذه الصورة لازالت مجهولة لهذا الوقت الحالي لكن ربما تكون إليزابيث تشابمان، زوجة توماس تشابمان التي هجرها، أو إحدى بناته الأربع. (الأرشيف المعماري الأيرلندي)

1 هي الفترة التي حكمت فيها الملكة فكتوريا بريطانيا (1837-1901)

2 لم تنجح الجيوش الإنجليزية التي تم إرسالها إلى أيرلندا في احتلالها؛ حيث كانت القوات الإنجليزية تصل لتقمع تمرداً؛ أو تغير ملكاً إيرلندياً، ثم تعود إلى ديارها. سئمت الملكة إليزابيث من عدم الاستقرار في إيرلندا، فقسمت العديد من أراضيها إلى مزارع، وكان المتعهدون (المستعمرون الإنكليزيون الأثرياء الذين «تولوا» مهمة استيراد المستأجرين) يديرون هذه المزارع. كانت وظيفتهم بسيطة: العثور على مستأجرين غير إيرلنديين يعملون في الأرض، فبحث المتعهّدون عن عائلات في إنجلترا وويلز ليتم إرسالهم بعد ذلك إلى أيرلندا، ووفقاً لهذا المخطط، كان من المفترض أن تمتلئ أيرلندا بالمزارعين الإنجليز الذين سيجلبون الاستقرار والبروتستانتية إلى إيرلندا، ولكن لم يعمل نظام المزارع الإليزابيثية بالشكل المطلوب، حيث حاول المتعهّدون إقناع العائلات الإنجليزية بالانتقال إلى أيرلندا، ولكنهم فشلوا، لذا قاموا بتأجير الأرض للأيرلنديين، وانتهت الفكرة المتمثلة في إبعاد الأيرلنديين عن الأرض.



اُلتقطت هذه الصورة لسارة لورنس عام 1895؛ مع أول أربعة من أبنائها، حيث عاشت عائلة «لورنس» في ذلك الوقت في لانجلي لودج في فاولي، على حافة نيو فورست، ويظهر في الصورة من اليسار إلى اليمين، توماس إدوارد، ويل، سارة مع فرانك بين ذراعيها وبوب، أما الابن الخامس، فهو أرنولد («أرني») ولد عام 1900 (مكتبة بودليان، أكسفورد)

لورنس، وسينجبان خمسة أبناء: مونتاجو روبرت (1885)، توماس إدوارد (1888)، ويليام جورج (1889)، فرانك (1893) وأرنولد والتر (1900).

لم يُطلق تشابمان زوجته الأولى، لذلك لم يتزوج هو وسارة أبداً (بقيت العلاقة بينهما غير شرعية)، فاختار الزوجان أن يسميا الأولاد على لقب سارة (لورنس)، وعاش «السيد والسيدة لورنس" في مواقع مختلفة قبل أن يستقرا في أكسفورد عام 1896، حيث اشتروا منزلاً في شارع بولستيد، بعد ذلك ادعى لورنس أنه كان على علم بظروف والديه، حيث أُنجب من علاقة غير شرعية منذ الصغر، وليس من الواضح في أي تاريخ اكتشف هذا حقاً، ولكن من الواضح أن هذا الجانب من حياته كان يزعجه للغاية.

لا يبدو أن سنوات لورنس الأولى في أكسفورد كانت كلها تعيسة، حيث التحق في عام 1896 بمدرسة مدينة أكسفورد الثانوية، وواصل تعليمه فيها حتى عام 1907، وأثبت نفسه كطالب ذكي، مع أنه لم يكن لامعاً.

على عكس العديد من أقرانه، كان لورنس يكره الرياضات الجماعية، مفضلاً الانخراط في المزيد من الأنشطة الفردية مثل التجديف وركوب الدراجات، كما لم يكن لورنس طويل القامة، حيث كان يبلغ طوله أقل من 5 أقدام و6 بوصات حوالي (168 سم)، ومع ذلك كان قوياً، وكان يمتلك قدرات تحمل عالية، وهذه الصفات ساعدته خلال حياته المهنية في زمن الحرب.

عندما كان شابًا، لم يفكر أبدًا في العمل في الجيش، كان مفتوناً بعلم الآثار والتاريخ، وبدا أنه كان متوجهاً ليسلك مهنة أكاديمية، حيث سافر إلى المواقع المحلية ذات الأهمية التاريخية. وخلال برنامج إعادة البناء في أكسفورد، جمع قطعاً أثرية مهمة قدمها لاحقاً إلى متحف أشموليان، ليبدأ ارتباطاً طويلاً مع تلك المؤسسة، واعترف أيضاً أمام عائلته وأصدقائه بطموحه لبدء مهنة الطباعة الدقيقة.

كان لورنس مسافراً مغامراً، حيث أمضى صيف 1906 و1907 في فرنسا يدرس القلاع، كما قام برحلاته الاستكشافية الأولى مع والده، ولكنه سافر لاحقاً بمفرده؛ أيضاً بين 1905-1906، يُعتقد أنه ربما قد هرب من المنزل بعد جدال مع عائلته، وانضم إلى مدفعية الحامية الملكية في كورنوال، كما يبدو أن والده حاول أن يثنيه عن هذا التجنيد.

التحق عام 1907 بكلية جيسوس بجامعة أكسفورد، حيث واصل دراسته لقلاع القرون الوسطى، ثم عاد إلى فرنسا في صيف 1908. ثم سافر في صيف 1909 إلى سوريا لدراسة بعض القلاع الصليبية الباقية هناك، حيث تم تجهيزه بحقيبة ظهر أساسية وكاميرا، وقام بجولة سيراً على الأقدام عبَر سوريا وفلسطين لمسافة تبلغ أكثر من 1770 كم (1100 ميل)، وقد كانت تعتبر هذه الرحلة خطيرة في ذلك الوقت، وبالفعل أُطلق عليه النار في مناسبة واحدة على الأقل، كما نشرت إحدى صحف حلب وفاته.

صارت هذه الرحلة البحثية أطروحة بكالوريوس بعنوان "تأثير الحروب الصليبية على العمارة العسكرية الأوروبية حتى نهاية القرن الثاني عشر"، حيث ناقش لورنس في أطروحته بشكل مقنع التطورات في الشرق، التطورات التي أثرت في بناء القلاع الأوروبية، بدلاً من العكس (أي ليس العمران الأوروبي هو الذي أثر في العمران الإسلامي بل العكس)، وحصل على مرتبة الشرف من الدرجة الأولى في هذا البحث عام 1910، ثم عاد إلى الشرق الأوسط، وقضى فترة في "جبيل" في لبنان حالياً، حيث تلقى دروساً في اللغة العربية.

تميزت الفترة التي قضاها لورنس في الجامعة بسلوكه الغريب، كما أنه أذهل زملاءه الطلاب عندما انضم إلى فيلق تدريب الضباط بالجامعة، وأثبت نفسه في التصويب والكشافة.

كان تركيـزه يتجـه نحـو الشـرق الأوسـط بشـكلٍ متزايـد، وفي نوفمبـر 1910، كان محظوظـاً للغايـة لأنـه حصـل على وظيفـة في التنقيب الأثـري للمتحـف البريطانـي في كركميش[1] في سـوريا، حيـث عمـل تحـت إشـراف «د.ج. هوجـارث» مـن متحـف أشـمليون، وسـافر إلـى سـوريا أوائـل عـام 1911. رغـم أنـه أمضـى فتـرة وجيـزة في إنجلتـرا عـام 1913، إلا أنـه أمضـى معظـم السـنوات الأربـع التاليـة في الشـرق الأوسـط يعمـل في مجـال الآثار.



اُلتقطـت هـذه الصـورة للورنـس مـع ليونـارد وولـي في الحفريـات الأثريـة في كركميـش في سـوريا حاليـا، والتـي كانـت ضمـن الأراضـي العثمانيـة، كمـا عمـل لورنـس في هـذه الحفريـات مـع المتحـف البريطانـي بيـن عامـي 1911 و1914، وقضـى أيضـاً فتـرة في التنقيـب في مصـر، وخـلال هـذا الوقـت اكتسـب معرفـة في هـذا المجـال، وتعلـم كذلـك اللغـات العربيـة والعـادات القبليـة، وأفادتـه هـذه التجربـة خـلال الثـورة العربيـة.

وطـوال هـذا الوقـت، عمـل لورنـس في أراضـي الدولـة العثمانيـة، وهـي القـوة التـي كانـت نهايـة عـام 1914 في حالـة حـرب مـع بريطانيـا، ونتيجـة لذلـك، فقـد اكتسـب الكثيـر مـن المعرفـة العمليـة التـي سيسـتخدمها لاحقـاً خـلال حياتـه المهنيـة في زمـن الحـرب.

1 مدينة جرابلس شمال حلب

خـلال الفتـرة الأولـى التـي قضاهـا في كركميـش، لـم يكتـف بعملـه في الأثريـات، ولكـن زاد معرفتـه باللغـة العربيـة، وازداد معرفـة بعـادات العمـال العـرب كونـه عمـل مشـرفاً على الحفريـات معهـم، وكل هـذه الخبـرات سـتفيده في وقـت لاحـق. اسـتخدم لورنـس أيضـاً كركميـش كقاعـدة لمزيـد مـن الاستكشـافات، حيـث سـافر إلى شـمال بـلاد مـا بيـن النهريـن (العـراق حاليًـا) عـام 1911، وكثيـراً مـا يُذكـر أن لورنـس كان يعمـل كجاسـوس في هـذا الوقـت، حيـث أنـه نفـذ عمليـة اسـتطلاع لجـزء مـن سـكة حديـد برلين-بغـداد بالقـرب مـن كركميـش الـذي قـام ببنائهـا مهندسـون ألمـان، لكـن مـن الصعـب إثبـات ذلـك، ومـع ذلـك فمـن المؤكـد أن لورنـس اكتسـب خبـرة كبيـرة في منطقـةٍ سـيعيد زيارتها لاحقـاً في زمـن الحـرب.

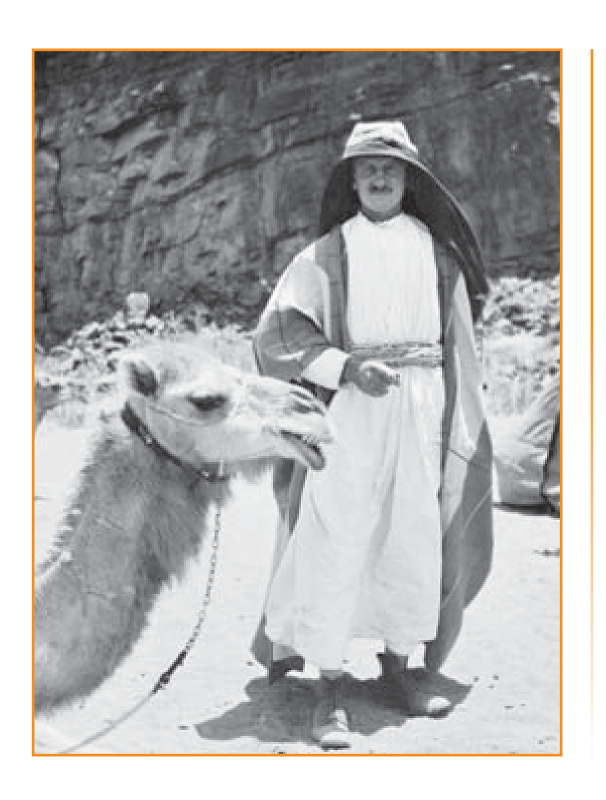
بعـد فتـرة قصيـرة مـن العمـل مـع عالـم الآثـار المميـز "فلينـدرز بيتـري"، عـاد "لورنس" إلـى كركميـش في مـارس 1912، ثـم عـاد عـام 1913 إلـى إنجلتـرا لإقامـة قصيـرة في أكسـفورد، حيـث اصطحـب اثنيـن مـن أصدقائـه العـرب "داهـوم" و"حمـودي" في زيـارة إلـى هنـاك.

بـدأت مقدمـة لورنـس الحقيقيـة مـع عالـم الاسـتخبارات العسـكرية في ينايـر 1914؛ عندمـا تمـت دعوتـه هـو وزميلـه" ليونـارد ولـي" للانضمـام إلـى اسـتطلاع شـبه جزيـرة سـيناء، حيـث كان هـذا الاسـتطلاع غيـر عسـكري تمامـاً في الظاهـر، وقـد تـم تنظيمـه مـن قبـل صنـدوق الاستكشـاف الفلسـطيني، وقـد أمـر بهـذا الاسـتطلاع مديـر العمليـات العسـكرية في لنـدن، حيـث كان هدفـه هـو دراسـة احتمـال هجـوم الجيـش العثمانـي على السـويس عبـر سـيناء، وكذلـك دراسـة الصعوبـات التـي قـد تواجههـا القـوات البريطانيـة التـي سـتعمل في تلـك المنطقـة، لذلـك عمـل "لورنـس" و"ولـي" تحـت غطـاء مدنـي، في حيـن أن الحملـة كانـت بقيـادة الكابتـن "سـتيوارت نيوكومـب"، الـذي خـدم لاحقًـا مـع لورنـس في الجزيـرة العربيـة.

اسـتمتع لورنـس بهـذه الفتـرة، وارتـدى العبـاءة والخنجـر، كمـا أتيحـت لـه فرصـة زيـارة البتـراء،[1] واكتسـب أيضـاً خبـرة حقيقيـة في التخطيـط العسـكري والاسـتطلاع. كان معروفـاً أيضـاً لضبـاط المخابـرات في القاهـرة، وعنـدمـا تطـوع لورنـس للخدمـة عـام 1914، كانـوا يسـتفيدون مـن مهاراتـه وخبراتـه.

1 البتراء أو البترا مدينة أثرية وتاريخية تقع في محافظة معان في جنوب المملكة الأردنية الهاشمية.

عندما بدأت الحرب تلوح في الأفق، تم إنهاء التنقيب بموقع الحفريات في كركميش وعاد لورنس إلى إنجلترا، حيث أمضى بعض الوقت في العمل على الاكتشافات الأثرية لبعثة سيناء مع "وولي"، وتم نشرها باسم "برية صين»[1] (1914)، وعند اندلاع الحرب، التحق بالقسم الجغرافي لهيئة الأركان العامة (المخابرات) ومقرها مكتب الحرب في لندن.



الكابتن (المقدم لاحقاً) ستيوارت نيوكومب، التابع للمهندسين الملكيين. رافق لورنس نيوكومب لإجراء مسح لسيناء في يناير وفبراير 1914، إلا أن هدف هذه الحملة كان استخباراتياً، وكانت هذه الحملة من الناحية الفنية تتبع لصندوق استكشاف فلسطين،[2] كما عمل لورنس في وقت لاحق مرة أخرى مع نيوكومب في طاقم المخابرات في القاهرة.

1 برية صين أو صحراء صين (بالعبرية: מדבר צין) هي منطقة جغرافية ذكرتها التوراة باعتبارها تحتوي على برية قادش بداخلها؛ وهي أحد محطات بني إسرائيل في البرية أثناء التيه بعد خروجهم من مصر.

2 هي جمعية بريطانية مقرها لندن أسست سنة 1865 م؛ تحت رعاية الملكة فكتوريا ملكة إنكلترا. وحسب ما تعلن الجمعية، فإنها جمعية علمية تهتم بالبحث في الآثار والطوبوغرافيا والجغرافيا الطبيعية والتاريخ الطبيعي لفلسطين. غير أنها لعبت دورا مهماً في مجال جمع المعلومات الاستخباراتية العسكرية التي كانت تحتاجها بريطانيا لمد نفوذها الاستعماري في المنطقة.

كان هـذا في البدايـة بصفـة مدنيـة، ولكـن في 26 أكتوبـر نُشـر في الجريدة الرسـمية للجيـش خبـر تعيينــه ملازمــاً ثانيــاً في «القائمــة الخاصــة"، وهــي فئــة مخصصــة للضبــاط الذيــن ليــس لديهــم ارتبــاط بــأي فرقــة، وبالتالــي فقــد كان مُلزمــاً بمهــام خاصــة. وبعــد أيــام قليلــة فقــط، دخلــت الإمبراطوريــة العثمانيــة الحــرب إلــى جانــب ألمانيــا والمجــر النمســاوية، فانطلــق لورنــس إلــى القاهــرة، وانضــم إلــى قســم المخابـرات بحلـول ديسـمبر 1914، وكانـت المنطقـة التـي سـافر إليهـا وعمـل كعالـم آثـار فيهـا بجانـب القـوة التـي كانـت في حالـة حـرب مـع إنجلتـرا، لـذا فمـن المتوقـع أن يلعـب لورنـس دوره في الحملـة ضـد الإمبراطوريـة العثمانيـة مـن خـلال توظيـف معرفتـه باللغـات والقبائـل والتضاريـس في هـذه المناطـق، كمـا سـيظهر أنـه لا أحـد، ولا حتـى لورنـس نفسـه، يمكـن أن يشـك في أنـه سـيلعب دوراً كبيـراً في الحمـلات التـي سـتأتي بعـد ذلـك.

الحياة العسكرية

اعترف لورنس في البداية بأنه كان مبتدئ في كل الأمور العسكرية، وعلى الرغم من أنه عمل مع فيلق تدريب الضباط أثناء دراسته كطالب جامعي، إلا أنه لم يخطط أبداً لأي مهنة عسكرية. وعندما كان شاباً، سافر إلى القاهرة مع لجنة مؤقتة في ديسمبر 1914، حيث انضم إلى طاقم المخابرات في المقر العام، وامتاز العامان التاليان بفترات من الإثارة والروتين الممل، لكن خلال هذا الوقت ثبَّت لورنس قدمه في العمل الاستخباري، وأثبت أيضًا أنه موهوب بالفطرة في هذا المجال.

عندما وصل لورنس إلى القاهرة، كان قسم المخابرات في القيادة العامة يُجرى توسيعه، حيث تم حجز الغرف في فندق سافوي لاستيعاب العدد المتزايد من الموظفين، وأبقت القيادة العامة على طاقم استخبارات صغير قبل الحرب. ولكن بحلول عام 1918 تم توسيع هذا الطاقم ليصل إلى أكثر من 700 شخص، وأثناء ذلك خدم لورنس تحت قيادة العقيد "جيلبرت بيرتي كلايتون"، ثم خدم بعد ذلك مع الرائد (العقيد لاحقاً) "ستيوارت نيوكومب"، الذي كان "لورنس" قد استطلع سيناء معه في وقت سابق من عام 1914، وكان القسم مسؤولاً عن تقديم تقارير استخبارية لسلسلة من القادة، منهم الجنرال السير "جون ماكسويل" (1914-15) والجنرال السير "أرشيبالد موراي" (1915-17)؛ وأخيراً



بدأ لورنس الحرب مع طاقم المخابرات في القاهرة كملازم ثاني مؤقت، حيث وجد أن واجباته الأولى روتينية تماماً، لكنه شعر أنه يمكن أن يؤدي دوراً أكثر أهمية بعدما تم تعيينه كضابط للتنسيق مع الجيش العربي في أكتوبر 1916. تم تصويره هنا بعد ترقيته إلى رتبة نقيب.

الجنـرال السـير «ادمونـد أللنبـي» (1917-1918)، وهـؤلاء سـيعمل معهـم لورنـس عـن قـرب.

قـام قسـم المخابـرات بإرسـال تقاريـر إلـى السـير "ريجنالـد وينجيـت"، الحاكـم العـام للسـودان، وتمـت إعـادة التقاريـر الـواردة مـن فريـق المخابـرات في القاهـرة إلـى لندن إلـى الفريـق السـير "جـورج ماكدونـا"، مديـر المخابـرات العسـكرية في مكتـب الحـرب، حيـث كان يتواجـد هنـاك أيضـاً وكالات اسـتخبارات أخـرى في العمـل، وقامـت أيضـاً البحريـة الملكيـة بتفعيـل قسـم المخابـرات الخـاص بهـا، كمـا فعلـت المفوضيـة البريطانيـة العليـا، وأنشـأ الفرنسـيون في عـام 1915 مقـراً للاسـتخبارات، في جزيـرة أرواد قبالـة السـاحل الليبـي.

امتـلأت المخابـرات في القاهـرة بشـخصيات غيـر عاديـة، وكان قـد تـم تكليـف العديد منهـم حديثـاً ومنهـم "لورنـس". كان مظهـر "لورنـس" غالبـاً غيـر منتظـم في هـذا العالـم العسـكري الجديـد، حيـث لـم يكـن يذهـب للعـرض العسـكري، وكثيـراً مـا كان الضبـاط النظاميـون يعلقـون على حالـة زيـه العسـكري وعـدم انتظامـه، وفي هـذه البيئـة الاسـتخباراتية المكتظـة بالبشـر، ظهـر لورنـس كضابـط غريـب الأطـوار ولكنـه مفيـد أيضـاً.

تـم تقسـيم قسـم الاسـتخبارات إلـى قسـمين فرعييـن، كان القسـم (1-أ)، بقيـادة "نيوكمـب"، يهتـم بجمـع المـواد عـن العـدو (التشـكيلات والخطـط والنوايـا وحالـة الجيـش العثمانـي)، وكان القسـم (1-ب) هـو فـرع مكافحـة التجسـس في القيـادة العامـة خـلال العاميـن التالييـن، والـذي سـيكون لـدى "لورنـس" فيـه العديـد مـن المسـؤوليات.

في يونيـو 1915، وصـف لورنـس يومـه العـادي: «حسـناً، الرسـم والإشـراف على رسـم الخرائـط: الإشـراف على طباعـة وتغليـف الخرائـط، والجلـوس في مكتـب يقـوم بترميـز البرقيـات وفـك تشـفيرها وإجـراء مقابـلات مـع السـجناء وكتابـة التقاريـر وإعطـاء المعلومـات مـن السـاعة 9 صباحـاً حتـى 7 مسـاءً".

يتوافـق هـذا الوصـف مـع تعليقاتـه اللاحقـة على العمـل في القسـم (1-أ)، حيـث بـدا العمـل في القسـم بالنسـبة للورنـس روتينيـاً ومملاً، كمـا يبـدو أنـه كان يقلـل

من أهمية العمل المهم الذي يقوم به، حيث كانت إحدى مهامه الأساسية هي تجميع ملفات تعريف للقادة العسكريين والسياسيين العثمانيين وكتابة التقارير عن الأراضي العثمانية، وبالفعل كتبها بأسلوبه الخاص وهو أسلوب وجده البعض مزعجاً، لأن تقاريره غالباً ما كانت تحمل نغمة مشابهة لتلك النغمة الموجودة في كتاب "حيوات قصيرة" لـ»جون أوبري"، الكتاب الذي كان على دراية به منذ أيام دراسته الجامعية. ومع ذلك، فإن ملفاته الشخصية لكبار الشخصيات العثمانية احتوت على الكثير من المعلومات وأظهرت نظرته الثاقبة للطبيعة البشرية، وتم تداولها على نطاق واسع في القاهرة وكذلك في لندن.

كان لورنس هو الضابط المناسب لمقابلة السجناء بسبب مهاراته اللغوية ومعرفته بالقضايا القبلية. بعد الهجوم العثماني الفاشل على قناة السويس، وشيئاً فشيئاً، نُقل الجنود الذين فروا أو تم القبض عليهم في مناوشات الصحراء إلى القاهرة، فازداد عدد أسرى الحرب الأتراك وظل لورنس مشغولاً، وكان يفضل أسلوباً ودياً ومحبباً، ووجد أنه عند إظهار معرفته بالأراضي العثمانية في فلسطين وسوريا، غالباً ما يتحدث هؤلاء السجناء بحرية تامة، وخاصة رجال القبائل العربية الذين تم تجنيدهم، كما سمحت له هذه الاستجوابات بتكوين صورة عن الظروف والحالة المعنوية في الجيش العثماني، حيث تحدث السجناء عن ضعف الأجور والغذاء والمرافق الطبية، كما اشتكوا من ضعف القيادة والتأثير المتزايد لألمانيا. ولأن الكثير من هذا كان دقيقاً، نجد أن لورنس قد شكل انطباعاً مفرطاً ومتفائلاً بشأن احتمال بدء تمرد كبير للقوات العربية في الجيش العثماني.

لم ينخرط لورنس وإخوانه الضباط بشكل مباشر في مكافحة التجسس، ولكنهم أصبحوا على دراية بالجهود التركية الألمانية لإثارة التمرد في مصر. ولأن بريطانيا كانت رافضة لهذا التمرد، راقب لورنس طوال عامي 1915 و1916؛ الشعور العام في القاهرة وبين الجيش المصري عندما شن العدو حملة تهدف إلى تعزيز التمرد.

في أوائل 1915، شهد لورنس أيضًا الاستعدادات للبعثة المخطط لها إلى جاليبولي، حيث كتب أن الحملة العسكرية كانت «غير مهيأة بشكل كبير»،

دون معرفـة أيـن ستسـير، أو مـا سـتلتقي بـه، أو مـا الـذي سـتفعله، كمـا كان لورنـس واحـداً مـن بيـن العديـد مـن الضبـاط الذيـن جابـوا المكتبـات في القاهـرة بحثـاً عـن خرائـط للرحلـة الاستكشـافية، وحـاول لورنـس أيضـاً تجميـع بعـض التقييمـات عـن القـوات التركيـة في شـبه جزيـرة جاليبولـي، كمـا تطـوع العديـد مـن زملائـه الضبـاط للعمـل مـع طاقـم اسـتخبارات الحملـة، إلا أنـه لـم يُسـمح لـ "لورنـس" بالذهـاب بسـبب افتقـاره إلـى الخبـرة في هـذا المجـال.

وفي الوقـت نفسـه، شـارك لورنـس في إعـداد الخطـط للقيـام بحملـة إلـى لـواء اسـكندرون على السـاحل السـوري، ورشـح خطـة أن تلتـف بريطانيـا حـول القـوات التركيـة في سـوريا عـن طريـق إنـزال جيـش في مؤخـرة القـوات التركيـة، لكـن للأسـف، تـم إلغـاء هـذه الخطـة في نهايـة المطـاف حيـث تـم تخصيـص المـوارد لعمليـة جاليبولـي الكارثيـة.

جـاءت أهـم مهمـة للورنـس خـلال هـذه الفتـرة في مـارس 1916؛ عندمـا تـم إرسـاله إلـى بـلاد مـا بيـن النهريـن (العـراق)، حيـث كلـف هنـاك بعـدد مـن المهـام لصالـح كل مـن القيـادة العامـة والمكتـب العربـي الـذي تـم إنشـاؤه حديثـاً:

أولاً: كان مـن المقـرر أن يلتقـي مـع اثنيـن مـن الهاربيـن مـن الجيـش العثمانـي همـا الرائـد "عزيـز علـي المـزري" والنقيـب "محمـد الفاروقـي"، وكان عليـه أن يقـدر حسـاباته حـول السـخط المنتشـر بيـن القـوات العربيـة ويقيـس مـدى ملاءمتهـا لقيـادة أي تمـرد مـن هـذا القبيـل.

ثانيًـا: كان مـن المقـرر أن يلتقـي لورنـس مـع العقيـد "بيرسـي كوكـس"، المسـؤول السياسـي الرئيسـي لقـوات الجيـش الهنـدي في بـلاد مـا بيـن النهريـن، ليشـرح لـه سياسـات ووظائـف المكتـب العربـي.

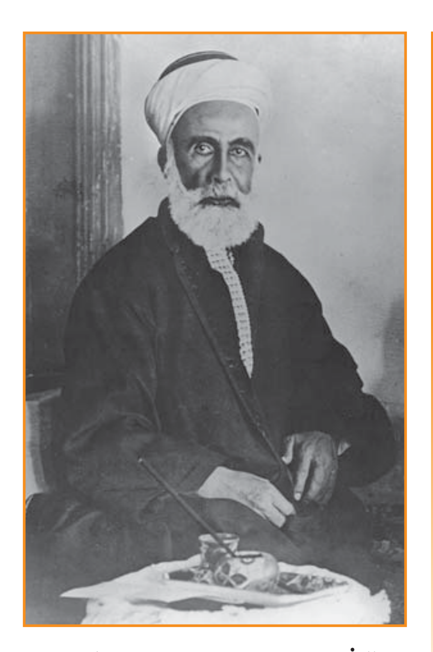
ثالثًـا: كان مـن المقـرر أن يلتقـي بضبـاط اسـتخباراتيون هـذه القـوة مـن أجـل إيجـاد مجـال للتعـاون في حالـة حـدوث ثـورة مـن قبـل العـرب.

ونتـج عـن هـذه المهمـة سلسـلة مـن الاجتماعـات المتوتـرة إلـى حـد مـا مـع ضبـاط الجيـش الهنـدي، الذيـن اسـتاؤوا مـن وجـوده وتطلعـات المكتـب العربـي، كمـا كانـت مناقشـات لورنـس مـع كل مـن "المـزري" و"الفاروقـي" صعبـة، حيـث أطلـع كلاهمـا

لورنـس على حركـة سـرية تسـمى العهـد، وزعموا أن القـوات العربيـة مسـتعدة للتمـرد، وأنهـم طلبـوا الدعـم مـن بريطانيـا وكان مطلبهـم هـو الاسـتقلال في نهاية المطـاف في حالة حـدوث هـذا التمـرد، ويبـدو أن ادعاءاتهـم كانـت مبالغاً فيهـا إلـى حـد مـا، إلا أن لورنـس أُصيـب بخيبـة أمـل عندمـا علـم أنهـم على اسـتعداد للنظـر في إمكانيـة الحصـول على الدعـم مـن ألمانيـا .

ألقـت الأحــداث فـي الكـوت[1] بظلالهـا على الجوانـب السياسـية لمهمـة "لورنـس"، حيـث اقتـرح القائـد العثمانـي المحلـي، "خليـل باشـا"، شـروط الاستسـلام للجنـرال "تاونسـند"، ورد "تاونسـند" بتقديـم دفعـة نقديـة إذا سُـمح لجيشـه بمغـادرة الكـوت، فنتـج عـن ذلـك ضغـوط سياسـية لمعرفـة إذا كان بإمـكان "المـزري" و"الفاروقـي" إثـارة تمردهمـا الموعـود، وهـو مـا لـم يعجـب الجنـرال "ليـك"، الـذي اعتقـد أن الخطـة كانـت مفرطـة في الطمـوح.

أصبـح الوضـع أكثـر غرابـة في الأسـابيع التاليـة، حيـث تـم تقديـم عـرض نقـدي بقيمـة مليـون جنيـه إسـترليني مـن الذهـب لإطـلاق سـراح جيـش «تاونسـند «في الكـوت، وفي اتصال سـري، طلـب «جمـال باشـا"، الحاكـم العثمانـي لسـوريا وقائـد الجيـش الميدانـي الرابـع، الاعتـراف بـه إذا أعلـن نفسـه ليكـون الحاكـم المسـتقل لسـوريا.



الشـريف حسـين بـن علـي شـريف مكـة، كان يتواصل مـع القيـادة العامـة في القاهـرة منـذ عـام 1914، وحـرض على الثـورة في يونيـو 1916، وكان مـن واجبـات لورنـس الرئيسـية تحديـد أي مـن أبنـاء الشـريف سـيكون أكثـر ملاءمـة لتوسـيع نطـاق الثـورة.

1 الكـوت مدينـة عراقيـة تقـع على ضفـاف نهـر دجلـة جنـوب العاصمـة بغـداد.

غـادر لورنــس البصـرة في 9 أبريـل 1916؛ متجهـاً إلـى الخطـوط الأماميـة بعـد أن التقى بـ»كوكـس“ و“جيرتـرود بيـل“، الخبيريـن المعروفيـن في الشـؤون العراقيـة، وبمجـرد وصوله وجـد نفسـه متورطـاً في أحـد أكثـر الأحـداث سـريالية في الحـرب. وصـل ”لورنــس“ إلــى مقـر الجنـرال ”ليـك“ في 19 أبريـل، بعـد أن سـافر عبـر النهـر على متـن زورق حربـي. وفي البدايـة تلقـى اسـتقبالاً فاتـراً، حيـث اعتبـر ”ليـك“ محاولـة التحريـض على التمـرد أمـراً مـن العَـار، أمـا »لورنـس“ فقـد بـدأ مباشـرة باسـتجواب الأسـرى العـرب.

ولكـن عندمـا هُزمـت القـوات التـي جـاءت لتخفيـف الضغـط عـن القـوات البريطانيـة مـرة أخـرى وفشـلت محاولـة إخـلاء الكـوت عـن طريـق النهـر، تـم إعـادة خطـة إطـلاق سـراح الجيـش المحاصـر بالنقـود، حيـث جـدد ”تاونسـند“ في صبـاح يـوم 27 أبريـل عـرض مليـون جنيـه إسـترليني إذا سـمح خليـل باشـا لرجالـه والمدفعيـة بمغـادرة الكـوت، وبعـد عـدة مـداولات مـن قبـل ”خليـل“، رُفـض العـرض.

في 28 أبريـل وصـل أمـر لــ ”لورنـس“ مـع ضابطيـن آخريـن همـا »هيربـرت“ و“بيتـش“، بالعبـور إلـى الخطـوط التركيـة وفتـح مفاوضـات جديـدة، وتـم تفويضهـم لعـرض تبـادل الأسـرى العـرب مقابـل إطـلاق سـراح المرضـى والجرحـى في الكـوت، وعنـد العبـور إلـى منطقـة القتـال تحـت علـم الهدنـة، اجتمـع لورنـس وزملائـه الضبـاط مـع ”خليـل باشـا“، وشـاركوا في محادثـات فاشـلة أخـرى، إلا أن ”لورنـس“ اسـتغل تلـك الفرصـة لتقييـم ”خليـل“، ولاحـظ أن القائـد العثمانـي لـم يكـن مقتنعـاً بقيمـة القـوات العربيـة لدرجـة أنـه لـم يهتـم بتبـادل الأسـرى، وفسـر ”لورنـس“ ذلـك أنـه بسـبب السـخط المتزايـد بيـن الأفـواج العربيـة، ثـم عـادت المجموعـة إلـى الخطـوط البريطانيـة في صبـاح يـوم 30 أبريـل، وقـد عوملـوا معاملـة جيـدة مـن قبـل الأتـراك، حيـث أقامـوا لهـم عشـاءً فخمـاً، إلا أن مهمتهـم لـم تكـن ناجحـة، وبعـد ذلـك عـاد ”لورنـس“ إلـى القاهـرة محبطـاً تمامـاً، وكان مسـتاء مـن نتيجـة الرحلـة بأكملهـا.

أصيـب ضبـاط الجيـش الهنـدي بخيبـة أمـل عميقـة وانصعـق »لورنـس« مـن نتائـج الحملـة، وفي الوقـت نفسـه، كان منزعجـاً مـن طبيعـة حلفائهـم العـرب المحتمليـن، كمـا خفـف مـن حـدة تقريـره عـن هـذه المهمـة قبـل إرسـالها إلـى القيـادة العامـة بسـبب الطبيعـة الحرجـة لتقييمـه، إلا أن الأحـداث بعـد ذلـك سـتتخذ منعطفـاً

حاسـماً مـن شـأنه أن يفتـح مرحلـة جديـدة وحاسـمة في مسـرح العمليـات في الشـرق الأوسـط، وسـيجد لورنـس نفسـه يلعـب الـدور الـذي كان يتمنـاه منـذ فتـرة طويلـة.

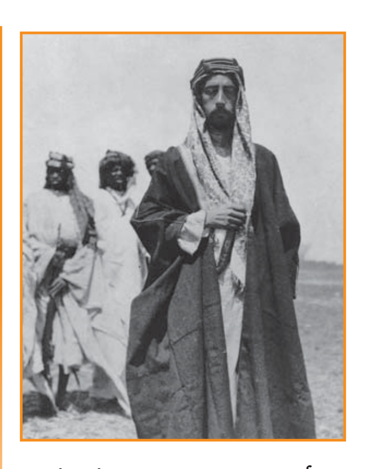
ساعة المصير

ظهـر لورنــس بأنــه مـرؤوس صعــب المـراس منــذ وصولــه إلــى القاهــرة عــام 1914، وغالبــاً مـا كان يشـعر بالملـل والإحبــاط مـن الروتيـن العسـكري، وفي بعـض الأحيـان يتحـول هـذا الإحبـاط إلـى عصيـان حقيقـي تجـاه رؤسـائه، وظهـر هـذا الجانـب مـن شـخصيته بشـكل متزايـد بعـد عودتـه مـن بـلاد مـا بيـن النهريـن.

في يونيـو، تـم تعييـن الرائـد "جـي. في. دبليـو. هولديتـش" لقيـادة القسـم (1-أ)، وكان الرجـلان قـد عمـلا معـاً بشـكل جيـد في السـابق، ولكـن سـرعان مـا بـدأت العلاقـة بالانهيـار، حيـث صـار "لورنـس" مضطربـاً وناقـداً بشـكل متزايـد، وأخـذ في تصحيـح علامـات الترقيـم والنحـو في تقاريـر الرؤسـاء وأصبـح لا يطـاق بشـكل عـام، وكان السـبب وراء كل هـذا بسـيطاً، فقـد كان يريـد أن يذهـب إلـى الحجـاز في المملكـة العربيـة السـعودية، حيـث اندلعـت الثـورة العربيـة أخيـراً في يونيـو 1916، كمـا كان مقتنعـاً بـأن لديـه دوراً حيويـاً يؤديـه ولكنـه بـدلاً مـن ذلـك، محصـور في حيـاة روتينيـة في القاهـرة. وبحلـول الوقـت الـذي وصـل فيـه "لورنـس" كانـت ثـورة الحجـاز مسـتمرة منـذ عـدة أشـهر، حيـث تـم تجـاوزه لصالـح ضبـاط يتمتعـون بخبـرة ميدانيـة أكبـر للذهـاب إلـى الحجـاز.

على الرغـم مـن أن القـادة العـرب قـد قدمـوا مبـادرات للقيـادة العامـة في القاهـرة في وقـت مبكـر مـن أبريـل 1914، إلا أن انـدلاع الثـورة كان بمثابـة مفاجـأة لهـم، حيـث في الأشـهر الأولـى مـن عـام 1916، أصبـح واضحـاً بشـكل متزايـد للشـريف حسـين في مكـة أن السـلطات العثمانيـة كانـت على وشـك التحـرك ضـده، وكانـت الشـائعات قـد وصلـت إليـه بأنـه يُجـرى النظـر في أمـر شـريف مكـة البديـل (الشـريف علـي حيـدر مـن فـرع زيـد مـن أحفـاد النبـي محمـد)، كمـا بذلـت السـلطات العثمانيـة جهـداً للسـيطرة على توريـد الأسـلحة والعتـاد العسـكري إلـى الحجـاز، وأبلـغ القوميـون السـوريون "حسـين" أنـه تـم تشـكيل قـوة مشـاة في دمشـق للتحـرك إلـى مكـة، لذلـك قـرر الشـريف حسـين أن الوقـت قـد حـان لبـدء الثـورة، وأوكل القيـادة الميدانية لأبنائـه.

كان حجـم الجيـش العربـي الأولـي غيـر مؤكـد، لكـن أشـارت بعـض التقديـرات إلـى



الأميـر فيصـل، الابـن الثالـث للشـريف حسـين، الـذي سـرعان مـا عـرف لورنـس أنـه قائـدُ ملهـم، كمـا أن طمـوح فيصـل الشـخصي جعلـه ينظـر إلـى فلسـطين وسـوريا كمملكـة مسـتقبلية لـه.

أنـه وصـل إلـى 30 ألـف مـن رجـال القبائـل، حيـث تـم تقسـيم هـؤلاء إلـى وحـدات أصغـر بقيـادة الأمـراء علـي وعبـد الله وفيصـل وزيـد، كمـا جـاءت الوحـدات الأوليـة مـن رجـال القبائـل التـي تقـع مناطقهـا القبليـة على السـاحل الغربـي لشـبه الجزيـرة العربيـة.

في 5 يونيـو 1916، أبلـغ الأميـران علـي وفيصـل القائـد العثمانـي في المدينـة، "اللـواء فخـري باشـا"، برغبـة العـرب الانسـحاب مـن الإمبراطوريـة العثمانيـة، وهجمـوا بالفعـل على المدينـة، وتبـع ذلـك هجمـات على سـكة حديـد الحجـاز إلا أنـه تـم صـد هجومهـم، كمـا تـم قطـع خطـوط التلغـراف أيضـاً، وبعـد خمسـة أيـام، أعلـن والدهـم الثـورة في مكـة، وشُـنت هجمـات على الحاميـات هنـاك وفي الطائـف، وعلى الرغـم مـن مفاجأة انـدلاع الثـورة، إلا أن القـادة العثمانييـن المحلييـن في الطائـف ومكـة كانـوا يتوقعـون هـذا الهجـوم.

واصلـت القـوات التركيـة المتبقيـة القتـال لعـدة أسـابيع تحـت الحصـار في المبانـي في كلتـا المدينتيـن، وفي هـذا المنعطـف الحـرج، تـم إدراك أن المسـاعدة الخارجية ضروريـة إذا أُريـد للثـورة أن تسـتمر. تـم الاسـتيلاء على مدينـة جـدة السـاحلية في 16 يونيـو بمسـاعدة الطائـرات المائيـة مـن دوريـة البحـر الأحمـر التابعـة للبحريـة الملكيـة، وهـي أسـطول بحـري كان مـن المقرر أن يلعـب دوراً حاسـماً في الأشـهر الأولـى مـن الثـورة، وسـمح الاسـتيلاء على هـذه المدينـة السـاحلية بإنـزال مجموعـة مـن الضبـاط البريطانييـن وقـوات مـن الجيـش المصـري والمدافـع الجبليـة والرشاشـات.

وفي 30 يونيـو، جلبـت هـذه القـوة الصغيـرة الأمـوال والطعـام والأسـلحة وأكثـر مـن مليـون طلقـة مـن ذخيـرة الأسـلحة الصغيـرة. وعلى الرغـم مـن أن مدينتـي ينبـع ورابـغ تـم الاسـتيلاء عليهمـا أيضـاً في يوليـو، إلا أن بقايـا الحاميـات في مكـة والطائـف صمـدت، ولـم يتضـح مـا إذا كانـت الثـورة العربيـة سـتكون قـادرة على الانطـلاق مـن المنطقـة السـاحلية الواقعـة تحـت سـيطرتها المباشـرة، وبدعـم مـن مدفعيـة الجيـش المصري، أُجبـرت آخـر حاميـة بمكـة على الاستسـلام في 9 يوليـو، بينمـا اسـتمرت حاميـة الطائـف حتـى 22 سـبتمبر قبـل إجبارهـا في النهايـة على الاستسـلام، وأعلـن الشـريف حسـين نفسـه «ملـك العـرب»، وهـو اللقـب الذي شـجعه المسـؤولون البريطانيـون لاحقـاً على تغييـره إلـى «ملـك الحجـاز».



خريطة عثمانية للجزيرة العربية، تعود للأرشيف العثماني سنة 1883م

خـلال هـذه الأسـابيع الحاسـمة الأولـى، عانـى "لورنـس" في القاهـرة، منزعجـاً مـن عـدم نشـاطه، وقـام بتجميـع التقاريـر والتوقعـات حـول الأحـداث في الحجـاز وتواصـل مـع أعضـاء المكتـب العربـي، حتـى أنـه صمـم مجموعـة جديـدة مـن

الطوابـع مخصصـة للاسـتخدام في مملكـة الحجـاز الهاشـمية. لكـن مـا أراده حقـاً هـو إرسـاله إلـى الميـدان، ومـع تطـور الأحـداث في شـبه الجزيـرة العربيـة، شـعر الكثيـرون أن مسـتقبل الثـورة غيـر مؤكـد، لذلـك تـم حـث الجنـرال "مـوراي" على إرسـال لـواء لدعـم القـوات العربيـة، وهـي خطـوة كان متـردداً في عملهـا لأنـه كان يرغـب في الاحتفـاظ بأكبـر عـدد ممكـن مـن القـوات في مصـر، وكان أيضـاً مـدركاً للعواقـب المحتملـة التـي ممكـن أن تحـدث مـن إرسـال القـوات الأوروبيـة للحملـة، في منطقـة تعتبـر الأرض المقدسـة للمسـلمين، لذلـك عقـب ذلـك سلسـلة مـن الاجتماعـات الحاسـمة في سـبتمبر وأكتوبـر، حيـث تناقـش كبـار الضبـاط في القاهـرة ومسـؤولون مـن المكتـب العربـي كيـف يمكـن مسـاعدة الثـورة، إذا كان هـذا الأمـر عمليـاً.



قاطـرة مـن سـكة حديـد الحجـاز، حيـث حـدد لورنـس أن هـذا هـو خـط الاتصـال الرئيسـي للجزيـرة العربيـة، ومـن عـام 1917، نفـذ لورنـس وضبـاط آخـرون سلسـلة مـن الإغـارات على الخـط في محاولـة لوقـف تدفـق التعزيـزات والإمـدادات التركيـة.

بـرز في هـذه المناقشـات الكولونيـل "سـيريل ويلسـون"، السـير "ريجينالـد وينجيـت" والسـير "رونالـد سـتورز"، وكانـت اللهجـة العامـة لهذه المناقشـات متشـائمة بالنسـبة لمسـتقبل قضيـة الثـورة العربيـة، كمـا كان هنـاك عامـل آخـر يجـب أخـذه في عيـن الاعتبـار وهـو وصـول «البعثـة العسـكرية الفرنسـية إلـى مصـر» في سـبتمبر 1916، حيـث كان لـدى الحكومـة الفرنسـية خطـط على الأراضـي العثمانيـة، وكان مـن الواضـح تمامـاً أن الفرنسـيين اعتبـروا هـذه مهمـة للحلفـاء.

كانـت القـوات الفرنسـية متمركـزة في بورسـعيد، وكان عددهـا في النهايـة أكثـر مـن 1100 رجـل، وكان يقودهـا في البدايـة العقيـد "إدوارد بريمونـد"، وهـو ضابـط متمـرس شـارك في العديـد مـن الحمـلات في شـمال إفريقيـا الفرنسـية قبـل الحـرب، وأيضـاً كان الفرنسـيين يتمتعـون بميـزة كبيـرة، حيـث كان لديهـم ضبـاط وقـوات مسـلمين يمكـن نشـرهم في شـبه الجزيـرة العربيـة علـى الفـور تقريبـاً، إلا أن لورنـس سـعى طـوال الحملـة إلـى إحبـاط الخطـط الفرنسـية لمسـتقبل شـبه الجزيـرة العربيـة.

كمـا عُـرف أن القـوات العثمانيـة كانـت تسـتعد لهجـوم كبيـر لإخمـاد الثـورة، وكان الجنـرال "فخـري باشـا" هـو المحـرك الرئيسـي للتحـركات العثمانيـة المضـادة، وأيضـاً تـم تعزيـز جيشـه في المدينـة المنـورة، كمـا تسـلم طائرتيـن جديدتيـن.

في أشـهر الخريـف عـام 1916، بـدا الأمـر وكأن الثـورة سـتنتهي قبـل عيـد الميـلاد، حيـث كانـت القـوات والقـادة العـرب غيـر فاعليـن، بينمـا كان كبـار القـادة في القاهـرة يناقشـون مـا إذا كانـت قضيتهـم تسـتحق المزيـد مـن الدعـم أم لا، ومـع هـذا الخمـول سـيُعطي لورنـس الفرصـة التـي كان ينتظرهـا.

في أوائـل أكتوبـر 1916، اقتـرح الكولونيـل "كلايتـون" مـن المخابـرات العسـكرية إرسـال "لورنـس" إلـى شـبه الجزيـرة العربيـة لإجـراء تقييـم للوضـع العسـكري وتقديـم تقريـر حـول الوضـع. بينمـا كانـت التقاريـر تأتـي بالفعـل مـن ضبـاط بريطانييـن آخريـن في الميـدان، وكانـت هـذه التقاريـر غالبـاً متناقضـة، وكمـا أشـار "لورنـس جيمـس"، فـإن هـذه التقاريـر «مربكـة وليسـت واضحـة"، لذلـك تـم إرسـال "لورنـس" كعيـن مـن العيـون.

غـادر لورنـس مصـر في 13 أكتوبـر / تشـرين الأول 1916؛ علـى متـن السـفينة "لامـا" بصحبـة "رونالـد سـتورز" مـن المكتـب العربـي والرائـد "المـازري"، الـذي التقـى بـه لورنـس بالفعـل في بـلاد مـا بيـن النهريـن، وكان "المـزري" ضابطـاً سـابقاً في الجيـش العثمانـي، وبعـد أن أمضـى بعـض الوقـت في تجنيـد أسـرى الحـرب العـرب العثمانييـن الذيـن كانـوا في مصـر ونقلهـم للعمـل في الجيـش العربـي، تـم إرسـاله في ذلـك الوقـت إلـى الجزيـرة العربيـة ليكـون رئيـس أركان الشـريف حسـين، وأثنـاء هـذه الرحلـة التـي اسـتغرقت يوميـن، ناقـش لورنـس كلاً مـن المسـتقبل السياسـي والعسـكري للثـورة، وظهـر أن "المـزري" اقتـرح خطـة عسـكرية كانـت مشـابهة جـداً

لتلـك التـي تبناهـا لورنـس لاحقـاً خـلال حملتـه العسـكرية، حيـث انطـوت فكـرة "المـزري" على إنشـاء رتـل طائـر متحـرك[1]، والـذي سيشـمل مدفعيـة خفيفـة ويركـز جهـوده ضـد سـكة حديـد الحجـاز، ثـم وصـلا إلـى جـدة في 15 أكتوبـر 1916.

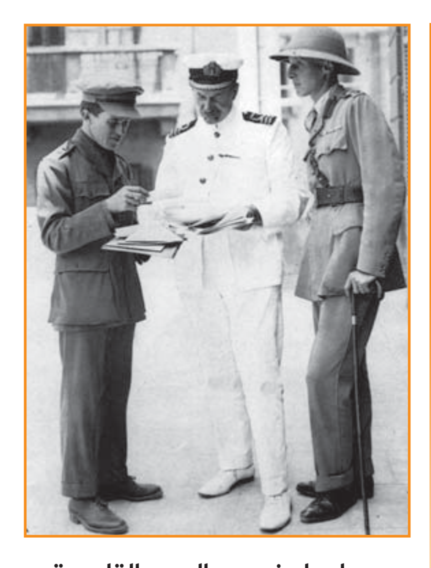
كانـت مهمـة لورنـس متعـددة الجوانـب، كمـا كان الحـال مـع مهمتـه السـابقة في العـراق، حيـث كان عليـه التحـدث مـع "المـزري" ليكتشـف قدراتـه وطموحاتـه وخططـه، وعليـه أن يقيـم قـدرات الجيـش العربـي وقادتـه مـع رسـم صـورة واضحـة للقـوات العثمانيـة وتوجهاتهـا، وإذا حصـل على إذن بالسـفر إلـى الداخـل مـن حسـين، فسـيتعين عليـه إجـراء اتصـال مـع فيصـل وجيشـه، حيـث سـاد شـعور بـأن هـؤلاء مـن المحتمـل أن يواجهـوا وطـأة الهجـوم العثمانـي المضـاد المتوقـع، كما كان على لورنـس أيضـاً محاولـة البـدء في بنـاء شـبكة جديـدة مـن العمـلاء للمخابـرات العسـكرية، حيـث كان يُعتقـد أن العمـلاء الذيـن يعملـون مـع حسـين وأبنائـه لا يمكـن الاعتمـاد عليهـم تمامـاً، أخيـراً، كان على لورنـس أيضـاً تقييـم ضبـاط الكتيبـة البريطانيـة، ولا سـيما الكولونيـل "ويلسـون"، الـذي ظهـر عليـه الضغـط أثنـاء مهمتـه الصعبـة.

1 الرتـل الطائـر :عبـارة عـن وحـدة بريـة عسـكرية صغيـرة ومسـتقلة قـادرة على الحركـة السـريعة وتتألـف عـادة مـن جميـع الأسـلحة. غالبـاً مـا تكـون وحـدة مخصصـة يتـم تشـكيلها أثنـاء سـير العمليـات. وعـادة مـا يتـم تطبيـق هـذا المصطلـح، وإن لـم يكـن بالضـرورة، على قـوات أقـل مـن قـوة لـواء، نظـراً لأن التنقـل هـو الغـرض الأساسـي منـه، فـإن الرتـل الطائـر يكـون مصحوبـاً بالحـد الأدنـى مـن المعـدات. يسـتخدم بشـكل عـام النقـل السـريع المناسـب؛ تاريخيـاً، تـم اسـتخدام الخيـول، مـع اسـتبدال الشـاحنات والمروحيـات بهـا في آل عصـر الحديـث.

من رابغ إلى الوجه، من أكتوبر 1916 إلى يناير 1917

لذلك كان دور لورنس في البداية سياسياً إلى حد كبير، حيث تواجد هناك بالفعل عدد من الضباط العسكريين مع الجيش العربي يعملون في دور عسكري بحت، ومن هؤلاء الكولونيل "ويلسون"، والمقدم "جويس"، والمزيد من الضباط الصغار مثل الملازم (فيما بعد الرائد) "جارلاند"، وانشغل هؤلاء الضباط والجيش المصري، بالدفاع عن المدن الساحلية وكذلك تدريب رجال القبائل العربية. وكانت دورية البحر الأحمر التابعة للبحرية الملكية، والتي تضم حاملة طائرات مائية، تحت قيادة الكابتن "بويل"، بينما كان الكابتن "إيه جي روس" يقود فرقة صغيرة من سلاح الطيران الملكي.

ربما ليس من المستغرب أن لورنس نجح في الاحتكاك مع العديد من هؤلاء الضباط بطريقته الخاطئة وبأسلوبه العنيد، حيث بحلول 22 أكتوبر / تشرين الأول، عادى «لورنس» الكثيرين، كما أرسل الكولونيل "ويلسون" برقية للعقيد "كلايتون" في القاهرة قائلاً: «يستحق لورنس الطرد بقوة على ما يفعله". وتابع ويلسون: "إنني أنظر إليه على أنه شاب مغرور يستغل معرفته بعرب سوريا، ليجعل نفسه السلطة الوحيدة في الحرب والهندسة وسفن صاحبة الجلالة وكل شيء آخر. لقد



عاد لورنس إلى القاهرة لمناقشة تطور الثورة العربية مع كبار مسؤولي المخابرات والمكتب العربي في القيادة العامة، وفي هذه الصورة تم تصويره مع القائد ديفيد هوغارث والعقيد الآن دوناي في مارس 1918. كان هوغارث حارساً سابقاً لمتحف أشموليان في أكسفورد وكان رئيساً للمكتب العربي منذ عام 1916، بينما نسق دوناي حملات جيش الشمال العربي عام 1918.

عــادى كل شــخص قابلتــه مــن الأميــرال «وميــس» وصــولاً إلــى أصغــر زميــل بالبحــر الأحمــر".

بــدأ لورنــس يتعامــل بمفــرده مــع القــادة العــرب، وســرعان مــا قــام بتقييــم صفــات ابنــي الحســين الأكبــر (علــي وعبــد الله) وأدرك أنهــم يعتزمــون إبقــاء قواتهــم علــى مقربــة مــن مكــة والمدينــة، أمــا بالنســبة للأهــداف الاســتراتيجية طويلــة المــدى، فقــد رغبــوا في تركيــز القــوات الهاشــمية هنــاك حيــث كان هنــاك شــعور بأنهــم مــن خــلال الســيطرة على أقــدس بلدتيــن في الإســلام فســيضمنون النفــوذ الهاشــمي في وقــت لاحــق.

في أواخــر الأشــهر الأخيــرة مــن عــام 1916، بــدأ لورنــس بالتركيــز على فيصــل، الــذي كان يعســكر بالقــرب مــن ينبــع بقــوة قوامهــا حوالــي 8000 مــن رجــال القبائــل و1500 مــن القــوات المصريــة وغيــر النظاميــة. ســافر لورنــس عبــر الصحــراء، والتقــى أولاً بفيصــل بالقــرب مــن الحمــرا في 23 أكتوبــر 1916، حيــث وجــد الزعيــم العربــي مكتئبــاً مــن الانتكاســات العســكرية الأخيــرة وأيضــاً معاديــاً لــه بســبب أن البريطانييــن كانــوا يمــدون جيشــه بالأســلحة ببــطء شــديد لدرجــة لا ترضيــه ويرفضــون حاليــاً توفيــر المدفعيــة.

في هــذا الاجتمــاع الأول، ادعــى لورنــس لاحقــاً أن فيصــل ســأله، «كيــف تحــب مكاننــا هنــا في وادي صفــرا؟»، فــرد عليــه لورنــس، "جيــد، لكنــه بعيــد عــن دمشــق»، وســواء كان هــذا التبــادل أم لا حــدث بالفعــل في هــذا الوقــت، لكــن نلاحــظ أنــه في الأشــهر التــي تلــت أن نظــرة لورنــس وفيصــل ســتتحول بالفعــل بشــكل متزايــد إلــى الشــمال الشــرقي.

فيصــل، الابــن الثالــث لحســين، لــم يتوقــع أن يتــم تخصيــص الكثيــر مــن الأراضــي لــه بعــد الحــرب مــع العثمانيــون في شــبه الجزيــرة العربيــة، ولقــد أدرك أنــه يجــب أن يبحــث في مــكان آخــر، وشــجعه لورنــس على هــذا الطمــوح، الــذي رأى أنــه يســهل تحقيــق أهدافــاً اســتراتيجية أوســع لبريطانيــا.

على المــدى القصيــر، كان اهتمــام فيصــل الرئيســي هــو القــوات التركيــة في المدينــة المنــورة بقيــادة "فخــري باشــا"، حيــث كان مــن الواضــح أن القــوات تحتشــد اســتعداداً

لتحـرك مضـاد ضـد العـرب في الأشـهر الأخيـرة مـن عـام 1916، ولكـن لـم تسـر المواجهـات الأوليـة بشـكل جيـد بالنسـبة للعـرب، وبـدا مـن المحتمـل أن القـوات التركيـة سـتندفع غربـاً في محاولـة لاسـتعادة المـدن السـاحلية التـي كانـت في ذلـك الوقـت في أيـدي العـرب، ولـم يبـد أن العـدد القليـل مـن الضبـاط البريطانييـن والقـوات المصريـة المخصصـة للجيـش العربـي قـادرة على التأثيـر في النتيجـة لصالـح العـرب.

عـاد لورنـس إلـى القاهـرة ليرسـل تقريـر تقييمـه عـن القـادة العـرب، بعـد أن وعـد فيصـل بمزيـد مـن الدعـم مؤكـداً على فائـدة فيصـل وصفاتـه الملهمـة كزعيـم للقبائـل العربيـة، كمـا انخـرط في النقـاش حـول جـدوى إرسـال لـواء بريطانـي كامـل لدعـم القـوات العربيـة، ولقـد قـدر لورنـس أن غالبيـة القـوات العربيـة لـم يكـن لديهـا أي عقليـة أو تدريـب أو أسـلحة لشـن دفـاع ناجـح طويـل الأمـد عـن رابـغ وينبـع، وحـث على مزيـد مـن الدعـم.

شـعر لورنـس في هـذا الوقـت أن دوره في الميـدان قـد انتهـى وأنـه يعـود إلـى مكانـه الصحيـح في القيـادة العامـة بالقاهـرة، وعنـدمـا قيـل لـه إنـه سـيعود للعمـل كهمـزة اتصـال مـع فيصـل، لـم يعجبـه الأمـر في البدايـة، لكنـه أبحـر مـرة أخـرى إلـى الجزيـرة العربيـة في 25 نوفمبـر 1916، حيـث وصـل في الوقـت الـذي واجهـت فيـه الثـورة العربيـة أسـوأ أزماتهـا.

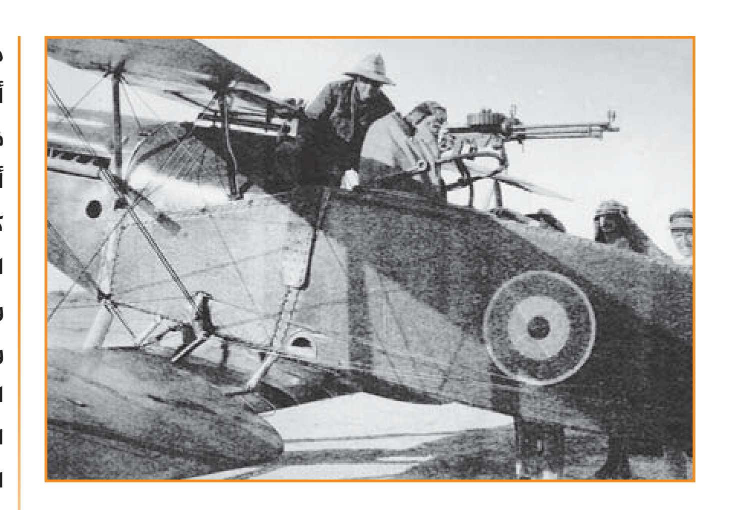
كان "فخـري باشـا" قـد غـادر المدينـة المنـورة بقـوة قوامهـا حوالـي لواءيـن، عازمـاً على اسـتعادة ينبـع ثـم رابـغ، كمـا كانـت القـوات التركيـة قـد طوّقـت موقعـاً عربيـاً في وادي صفـرة في 1 كانـون الأول / ديسـمبر، وانكسـرت القـوات العربيـة وهربـت، ثـم هُزمـت قـوة عربيـة في الحمـرا بقيـادة الأميـر زيـد، تـاركا خلفـه قائـد العثمانييـن وقـد سـيطر على الطـرق المؤديـة إلـى كل مـن ينبـع ورابيـغ.



تـم إرسـال لورنـس إلـى شـبه الجزيـرة العربيـة في أكتوبـر 1916؛ لتقييـم تقـدم الثـورة ولتقديـم تقريـر عـن إمكانـات القـادة العـرب، فالتقـى لورنـس أولاً مـع الأميـر فيصـل في 23 أكتوبـر 1916؛ في وقـت تعثـرت فيـه الثـورة وعانـى فيصـل نفسـه مـن سلسـلة مـن الانتكاسـات ودفعـه الأتـراك إلـى الحمـرا، وفي سلسـلة مـن الاجتماعـات، ناقـش لورنـس -وكان ضابطـاً صغيـراً في ذلـك الوقـت- وفيصـل الخطـط المسـتقبلية للثـورة، حيـث وجـد لورنـس فيصـل عدائـي تمامـاً في الاجتمـاع الأول، بسـبب قلـة الأسـلحة التـي قدمهـا البريطانيـون وكذلـك بسـبب نقـص المدفعيـة، وتقـرر في النهايـة أنـه مـن الضروري أن يسـيطر الجيـش العربـي على مدينتـي ينبـع ورابـغ السـاحليتين، وهـذا مـن شـأنه أن يسـهل الإمـداد عـن طريـق البحـر وكذلـك الإخـلاء إذا لـزم الأمـر.

خـلال الإجـراءات التـي تلـت ذلـك بيـن ديسـمبر 1916 ويناير 1917، ثبـت أن دعـم دوريـة البحـر الأحمـر التابعـة للبحريـة الملكيـة كان حاسـماً.

يظهـر لورنـس (1) هنـا بغطـاء رأس عربـي ولكـن في زي رسـمي آخـر، ويسـاعد فيصـل (2) سـكرتيره (3) بينمـا يقـف في الخلفيـة حـارس شـخصي مدجـج بالسـلاح (4).



منذ بداية الثورة العربية، أثبتت القوة الجوية فعاليتها الكبيرة، وفي أوقات مختلفة تعاونت كل من طائرات الخدمة الجوية البحرية الملكية والفيلق الجوي الملكي وسلاح الجو الملكي مع القوات العربية. هنا الملازم مورفي يفسح المجال لرجل من القبائل العربية أن يلقي نظرة على طائرته بريستول إف 2.

وجد لورنس فيصل في "نخل مبارك" بقوة قوامها حوالي 4000 من رجال القبائل في 2 ديسمبر، وعلى الرغم من الوضع اليائس، وجد لورنس فيصل هادئاً وكريماً، وفي الأيام التي أعقبت ذلك وُضع مصير الثورة العربية على المحك، حيث تحركت القوات التركية تدريجياً نحو ينبع، واندفعت القوات العربية المرسلة لمواجهتها، كما وضع لورنس مطاراً أمامياً ليستخدمه الفيلق الجوي الملكي المتمركز في ينبع.

في هذا الوقت، ادعى لورنس لاحقاً، أن فيصل دعاه إلى ارتداء الزي العربي وقدم له مجموعة من الجلابيب التي أحضرها من مكة، ومهما كانت الحقيقة من هذا الادعاء، فإن لورنس ارتدى الجلباب العربي أثناء وجوده في الميدان من تلك اللحظة فصاعداً.

بعد العديد من اللقاءات المستعجلة مع القادة العرب، سارع لورنس بالعودة إلى ينبع حيث وجد الملازم "جارلاند" مشغولاً بإعداد الدفاع عن المدينة بقوة قوامها حوالي 1500 رجل، كما أرسل لورنس رسالة عاجلة إلى النقيب "بويل" بدورية البحر الأحمر التابعة للبحرية الملكية، وفي نهاية المطاف سيكون الدعم البحري الملكي هو الذي سيقلب التوازن لصالح العرب.



صورة الحاملة رافين

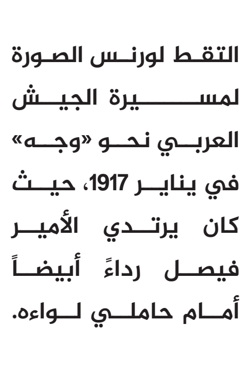
وصلت خمس سفن تابعة لدورية البحر الأحمر قبالة الساحل في ينبع، بما في ذلك جهاز رصد من طراز M.31، وكانت قادرةً على التحرك بالقرب من الشاطئ لتوفير الدعم الناري، كما شمل الأسطول الصغير أيضاً "رافين"، وهي حاملة طائرات مائية. وفي الأيام التي تلت ذلك هاجمت الطائرات البحرية التابعة للبحرية الملكية الأرتال التركية أثناء تقدمها للمدينة، ومع طرد القوات العربية من نخل مبارك في 9 ديسمبر، إلا أن الطريق كان لايزال مفتوحاً إليها، ثم جاءت نقطة التحول خلال ليلة 11-12 ديسمبر عندما تقدم الأتراك إلى ينبع، لكنهم ألغوا هجومهم لأن "فخري باشا" أدرك أن مدافع البحرية الملكية والكشافات تغطي المدينة، ومع ذلك، واصل تقدمه جنوباً نحو رابغ واستمر في هذه العملية حتى 18 يناير، لكنه واجه مشاكل لوجستية وهجمات من الجيش الملكي على المدينة المنورة، وكذلك اعتلال جيشه بسبب الهجمات التي تحدث على طول خطوط اتصالاته، وهذا ما جعل القائد العثماني يوقف هجومه في النهاية.

كادت هذه السلسلة من الانتكاسات أن تنهي الثورة العربية وهي في مهدها، كما كان هناك عامل حاسم في القرار التركي حول وقف العمليات في هذه المرحلة، حيث وصلت الأخبار للعثمانيين بأن البحرية الملكية والجيش العربي يتحركان اتجاه "وجه"، وهي آخر ميناء يسيطرون عليه في الحجاز، وقد طُرح هذا المخطط من قبل، ولكن تم إحياؤه من قبل العقيد "ويلسون" في ديسمبر 1916، حيث ستسهل هذه الخطوة الهجمات اللاحقة على سكة حديد الحجاز،

وسـيصرف ذلـك القـوات التركيـة عـن رابـغ، أي بالمعنـى الاسـتراتيجي الأوسـع، فإنـه سـيجبر الأتـراك على اسـتهلاك قوتهـم البشـرية في حمايـة خـط السـكة الحديديـة، الـذي تمتـد لأكثـر مـن 1300 كيلومتـر (800 ميـل) إلـى دمشـق.

جمـع فيصـل قـوة قبليـة كبيـرة مـن بيـن قبائـل العقيـل، جهينـة، عتيبـة، حـرب، وبلـي، وتـم دعمهـم بالذهـب البريطانـي، وعندمـا تـم تجميـع هـذه القـوة أخيـراً التـي بلـغ عددهـا أكثـر مـن 8000 مـن رجـال القبائـل، اعتـرف القـادة العـرب بأنـه كان أكبـر جيـش قبلـي تـم تجميعـه. سـافر لورنـس إلـى القسـم الأول مـن هـذا الرتـل الكبيـر، جنبـاً إلـى جنـب مـع فيصـل وحارسـه الشـخصي مـن قبيلـة العقيـل، وانطلقـوا في رحلة عسكرية إلى "وجه"، على بعد أكثر من 320 كيلومتراً (200 ميل).





التقـط لورنـس الصورة لمسـيرة الجيـش العربـي نحـو «وجـه» في ينايـر 1917، حيـث كان يرتـدي الأميـر فيصـل رداءً أبيضـاً أمـام حاملـي لـواءه.

كانـت خطـة أخـذ "وجـه" بسـيطة نسـبياً، إذ سـتتحرك القـوة البحريـة الملكيـة، بمـا في ذلـك "فوكـس" و"هاردينـج" و"إسـبيجل"، بقيـادة الأدميـرال "ويميـس"، بالقـرب مـن الشـاطئ وتدعـم الجيـش العربـي الـذي سـيهاجم مـن الجانـب البـري، وكان على متـن هـذه السـفن البحريـة الملكيـة حوالـي 600 متطـوع عربـي، والذيـن سـيقومون بالإنـزال في نفـس الوقـت، وعندمـا وصـل «ويميـس" إلـى المدينـة في 23 ينايـر 1917، لـم يجـد أي أثـر للجيـش العربـي، حيـث دافـع عـن المدينـة حوالـي 800 رجـل مـن كتيبـة المشـاة التركيـة رقـم 129 ؛وتجمـع فيهـا 500 مـن رجـال قبائـل العقيـل، وكان مـن المعـروف أن سـكان البلـدة معـادون للهاشـميين، لذلـك كان هنـاك خطـر

مـن انضمامهـم إلـى الدفـاع، ومـع ذلـك، قـرر "ويميـس" أن يمضـي إلـى الهجـوم، وأن الوقـت جوهـريٌ، ويمكـن للقـوة العربيـة الموجـودة على متـن سـفنه أن تحقـق الهـدف إذا كانـت مدعومـة بالنيـران البحريـة وفـرق الإنـزال البحريـة والطائـرات المائيـة.

اسـتمر القتـال مـن أجـل الاسـتيلاء على "وجـه" طـوال اليـوم، حيـث اشـتبكت القـوات العربيـة وأفـراد البحريـة الملكيـة مـع القـوات العثمانيـة في حـرب شـوارع للسـيطرة على المدينـة، ولـم تستسـلم القـوات العثمانيـة في المدينـة إلا في صبـاح اليـوم التالـي، وقتـل في الهجـوم قرابـة 20 مـن العـرب وضابـط مـن القـوات الجويـة الملكيـة وأصيـب عـدد كبيـر منهـم، أمـا الهجـوم المسـاند مـن جيـش فيصـل فلـم يحـدث قـط، ولـم يظهـر فيصـل ولورنـس والجيـش العربـي في "وجـه" حتـى 25 ينايـر.

في الأيـام التـي تلـت ذلـك، كان هنـاك تبـادل بالاتهامـات بيـن الضبـاط البريطانييـن وفيصـل ولورنـس. ووبـخ لورنـس ضبـاط البحريـة الملكيـة على نفـاد صبرهـم وأشـار إلـى أن تحريـك جيـش قبلـي كبيـر على هـذه المسـافة يمثـل صعوبـة كبيـرة ويجعـل مـن الصعـب الوصـول إلـى "وجـه" في الموعـد المحـدد، وعلى الرغـم مـن دفاعـه عـن التأخيـر العربـي، إلا أن لورنـس أدرك أن عـدم الحضـور في الوقـت المحـدد في "وجـه" سـيلقي بظـلال مـن الشـك على قيمتهـم كقـوة مقاتلـة وأنـه سـيجعل جهـوده لدعمهـم أكثـر صعوبـة في المسـتقبل، وكان محقـاً في قولـه أن إنجـاز فيصـل الرئيسـي يكمـن في الإنشـاء الفعلـي للجيـش، كمـا أصبـح على مقربـة مـن خـط الإمـداد العثمانـي الرئيسـي: سـكة حديـد الحجـاز، والتـي مـن خلالهـا يأتـي أكبـر تهديـد للقـوة العثمانيـة في شـبه الجزيـرة العربيـة.

وعلى مـدى الأشـهر التـي تلـت ذلـك، قـام لورنـس وغيـره مـن الضبـاط البريطانييـن بتحويـل هـذا التهديـد إلـى حقيقـة واقعـة عندمـا شـرعوا في حملـة منسـقة ضـد سـكة حديـد الحجـاز.

حملة السكة الحديدية 1917

كانت المسيرة إلى "وجه" في أوائل عام 1917 بمثابة منعطف حاسم في تاريخ الثورة العربية، إذ بعد الانتكاسات التي حدثت في أواخر عام 1916، انتقلت المبادرة مرة أخرى إلى العرب، وقد لاحظت ذلك القبائل الأخرى، وعلمت أن الثورة ستستمر، وسيستمر دعمها من قبل البريطانيين والفرنسيين. لذا فعند وصولهم إلى "وجه"، طلب فيصل أن يتم انتداب لورنس إلى جيشه، وتمت الموافقة على هذا الطلب من قبل القيادة العامة في القاهرة، وتعتبر هذه مهمةً مؤقتة أخرى للورنس لكنها غير محددة المدة، وعلى الرغم من مخاوفه السابقة حول العودة إلى الميدان، إلا أنه يبدو قد استمتع بهذه المهمة الجديدة منذ البداية، وأشار لورنس إلى أنه خلال الأسابيع التالية، جاء زعماء القبائل من "الشرارات" و"بني عطية" و"البلي" و"الحويطات" إلى "وجه" ليعلنوا ولائهم لفيصل والقضية الهاشمية، وكان الأمر الأكثر أهمية بالنسبة لـ "لورنس" هو أن بعض زعماء القبائل جاءوا من أماكن بعيدة مثل سوريا العثمانية، مما أشار إلى إمكانية إشعال فتيل الثورة في تلك المنطقة، ولكن في بعض الأحيان، كانت العداوات القبلية تشتعل، غير أن فيصل كان يسارع بإنهائها.



يستعد الكابتن وود وتروبر ثورن وتي إي لورنس للشروع في حملة ضد سكة حديد الحجاز، ويبدو أن لورنس يقوم بتحميل بندقية كولت 45. الأوتوماتيكية، وهو سلاح اعترف لاحقاً بأنه وجده فعالاً للغاية.

من المنظور الاستراتيجي الأوسع، كان الانتقال إلى "وجه" قد حصل في الوقت المناسب، كما سهل ذلك العمل ضد سكة حديد الحجاز، حيث وضع لورنس وفيصل خطتهما الأولية، وهي مهاجمة السكة الحديدية واعتراض الإمدادات والتعزيزات المتجهة إلى المدينة المنورة. وفي أفضل السيناريوهات، سيُجبر

هـذا الحاميـة التركيـة الكبيـرة التـي تضـم أكثـر مـن 12000 رجـل في النهايـة على الاستسـلام، كمـا سـتجبر هـذه الهجمـات الأتـراك على تشـتيت قواتهـم على طـول خـط السـكك الحديديـة للدفـاع عنهـا. ثـم بحلـول مـارس 1917، سـيتغير التركيـز مـن سـكة حديـد الحجـاز نحـو بـلاد الشـام.

علـم موظفيـن المخابـرات في القاهـرة أن "فخـري باشـا" قـد أُمـر بإخـلاء المدينـة المنـورة، وقـد احتـج "فخـري باشـا" على هـذه الأوامـر، لكـن ذلـك لـم يكـن معروفـاً في القيـادة العامـة، والتـي أمـرت بزيـادة الهجمـات على السـكة الحديديـة، حيـث كان مــن الضــروري حصــار "فخــري باشــا" في المدينــة المنــورة، كمــا أن الحاميــة التركيــة في ذلـك الوقـت سـتؤدي إلـى تقويـة الدفاعـات التركيـة في فلسـطين، حيـث صـارت بريطانيـا هنـاك على وشـك شـن هجـوم جديـد قريبـاً. وقـد بـدأ هـذا الهجـوم، بقيـادة الجنـرال "مـوراي" (أول معركـة في غـزة)، في 26 مـارس 1917، وعلى الرغـم مـن فشـله، فقـد أطلـق حملـة منسـقة ضـد السـكة الحديديـة للحجـاز التـي ستسـتمر حتـى نهايـة الحـرب.

خـلال الأشـهر الأولـى مـن عـام 1917، غـادرت المجموعـات الصغيـرة "وجـه" وتوجهـت إلـى السـكة الحديديـة، وقـاد هـؤلاء المقـدم "سـتيوارت نيوكمـب"، والمـلازم "هنـري جارلانـد" و"المـلازم هورنبـي"، مـع ضبـاط عـرب مثـل الرائـد "المـازري"، الـذي كان مـن أوائـل المدافعيـن عـن حملـة السـكك الحديديـة. غالبـاً عندمـا يتغيـب هـؤلاء، يصبـح لورنــس في القيــادة في "وجــه" كضابــط بريطانــي كبيــر، ولــم يكــن لورنــس الخيــار الأفضـل للغـارات وذلـك لافتقـاره إلـى الخبـرة الميدانيـة، لكـن هـذا سـيتغير لاحقـاً.

مـع اهتمـام لورنـس بالأعمـال السياسـية، في مـارس 1917 قـام برحلـة صحراويـة طويلـة إلـى وادي عيـس مـن أجـل إرسـال التعليمـات إلـى الأميـر عبـد الله، وبعـد أن اتصـل بالأميـر عبـد الله، الـذي كان سـيبقي جيشـه في محيـط المدينـة المنـورة لمضايقـة الحاميـة ومهاجمـة السـكة الحديديـة، وواصـل لورنـس طريقـه شـرقاً حتـى وصـل إلـى خـط السـكة الحديديـة بيـن أبـي النعـم وإسـطبل عنتـر. وعلى الرغـم أن اهتمامـه بالسـكك الحديديـة قـد زاد خـلال الأشـهر السـابقة، إلا أنهـا كانـت هـذه المـرة الأولـى التـي يراهـا. قطـع لورنـس ومجموعتـه الخـط إلـى جزئييـن، وقطعـوا خـط التلغـراف وزرعـوا أيضـاً ألغامـاً، وقـد أدى أحدهـا إلـى إخـراج قطـار جزئيـاً عـن

مساره، بينما تم طردهم في النهاية بنيران تركية.



ليس هذا النسف في زمن الحرب! هذا مشهد يستعد فيه طاقم المؤثرات الخاصة في فيلم دافيد لين «لورنس العرب» لوضع ألغام للقطار في أحد أكثر مشاهد الفيلم دراميَّة (مجموعة المؤلف).

كانت الغارة الأولى للورنس ناجحة، وكما كانت مميزة معه، فقد أخذ في الاعتبار الدروس التي تعلمها للعمليات المستقبلية. وخلال الأشهر التي تلت ذلك، قاد لورنس وضباط آخرون العديد من الغارات على سكة حديد الحجاز. في المراحل الأولى، كانت مجموعات الإغارة صغيرة جداً، وربما كانت تتألف من عشرة رجال فقط، ومع تقدم الحملة زاد حجمهم وبلغ عددهم في بعض الأحيان 200 رجل، كما تم استخدام طرق مختلفة لإحداث أكبر قدر من الضرر، وسرعان ما أدرك لورنس وزملاؤه أنه بدلاً من تفجير أجزاء من السكك الحديدية، كان من الأفضل ثني القضبان عن الشكل باستخدام «ألغام الزنبق"، وتسمى هكذا لأنهم قاموا بثني القضبان المعدنية في أشكال لا تختلف عن زهرة الزنبق، وقد ضَّمن ذلك قيام مجموعات الصيانة التركية أولاً بتفكيك أجزاء الخط التالف قبل استبداله، مما ساعد على زيادة العمل.

استغرق استبدال الخط الذي تم تفجيره ببساطة نصف الوقت، لذا فضل لورنس أيضاً إتلاف الأقسام المنحنية من الخط، حيث كان من الصعب إنتاج هذه القطع مرة أخرى وجعلها تناسب السكك الحديدية.

بدأ لورنس ومجموعته أيضاً في استهداف البنية التحتية الإضافية مع استهداف السكك الحديدية، فاستهدفوا خط التلغراف الذي كان بجانب خط

السكة، وهاجموا مباني المحطة وألحقوا بها أضراراً، مع الاهتمام بشكل خاص بأبراج المياه، وأطلقوا النار على الحصون التركية التي تدافع عن الخط وجعلوا الجسور هدفاً لهم.



صورة زهرة الزنبق

في إحدى المناسبات الخاصة، قام فريق الإغارات بقيادة "لورنس" والمقدم "جويس" بهدم أحد طرفي الجسر لكنهم تركوا القسم الأوسط الذي تضرر بشدة، وضمنوا بذلك أن يقوم فريق التصليح أولاً بهدم الجزء الخطير قبل إعادة بناء الجسر، أما العمل الكبير الذي أرادوا تحقيقه، فهو إخراج قطار متحرك عن مساره، الذي كان الملازم "جارلاند" هو من نفذه أول مرة في فبراير 1917.



أدناه: صورة في زمن الحرب لانفجار لغم في سكة حديد الحجاز. يبدو أن هذا هو "لغم الزنبق"، والذي تم تصميمه لثني القضبان عن شكلها الأصلي مما يجعلها أكثر صعوبة على مجموعات الصيانة التركية، كما استلزم بعض المداهمات على الخط تفجير عشرات العبوات.

وقـد حققـت هـذه الهجمـات أثرهـا المنشـود وعرقلـت تدفق الإمـدادات إلـى المدينة المنـورة، كمـا أنهـا جعلـت انسـحاب القـوات التركيـة مـن المدينـة مسـتحيلاً تقريبـاً، إذا أراد فخـري باشـا ذلـك. أمـا بالنسـبة لبقيـة الحـرب، فقـد كان على الجيـش التركـي أن يـوزع قوتـه البشـرية لحمايـة السـكك الحديديـة، وأيضـاً لتنظيـم الأرتـال المتحركـة المكلفـة بمواجهـة المجموعـات المهاجمـة. ومـع ذلـك، لا تـزال الفعاليـة النهائيـة لحملـة السـكك الحديديـة موضـع نقـاش، حيـث جـرت مقابلـة مـع المـلازم "هنـري جارلانـد" بعـد الحـرب، ادعـى فيهـا أن «فخـري باشـا" وحاميـة المدينـة لـم يكونـوا على وشـك المـوت جوعـاً، حيـث كانـت لا تـزال تؤمـن لهـم الإمـدادات مـن عنـد قبيلـة شـمر المواليـة للعثمانييـن. وفي حيـن أن عمليـات هـدم السـكك الحديديـة كانـت مصـدر إزعـاج كبيـر، إلا أن الجيـش العثمانـي كان لا يـزال يحتفـظ بأكثـر مـن 10000 عنصـر فعّـال في نهايـة الحـرب، ولـم تستسـلم حاميـة المدينـة حتـى ينايـر 1919.

العقبة، أيار - تموز 1917

إذا كان على المرء أن يمدح حدثاً واحداً فقط من مسيرة لورنس في شبه الجزيرة العربية، فيجب أن يكون المدح موجهاً لمسيرته الملحمية في العقبة صيف 1917. ففي فترة تزيد عن شهرين قاد لورنس مجموعة صغيرة من رجال القبائل في منطقة وعرة للعدو من أجل تنفيذ هجوم انقلاب رئيسي على مدينة ذات أهمية استراتيجية، وفي حين أن العمل نفسه كان مثيراً للإعجاب، إلا أن أيضاً التوقيت الذي اختاره لورنس للعملية كان ممتازاً ، حيث كان زخم الثورة قد ضَعُف عند العرب إلى حد ما.



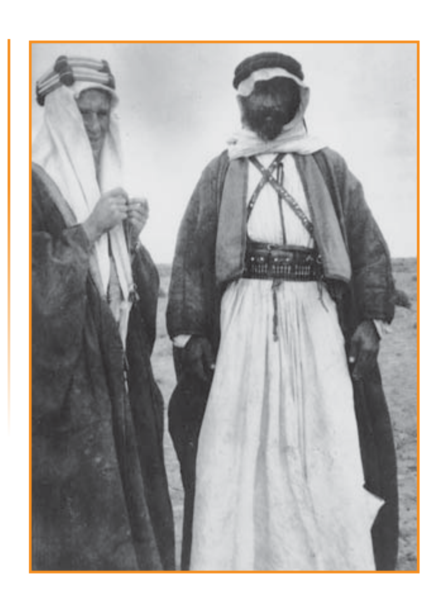
العقبة على ساحل البحر الأحمر. أدرك لورنس وفيصل أن الاستيلاء على هذه المدينة الساحلية سيسمح لهما لاحقاً بأخذ جيش الشمال العربي باتجاه فلسطين ولبنان وسوريا.

بحلول مايو 1917، تحولت القوات العربية إلى ثلاثة جيوش بشكل أساسي، حيث تمركز جيش الشمال العربي بقيادة فيصل في "وجه". أما الجيش العربي الجنوبي بقيادة الأمير علي الذي فقد تمركز جنوباً بالقرب من المدينة المنورة، بينما كان الجيش العربي الشرقي، بقيادة الأمير عبد الله، إلى الشرق من مكة، وبقيت جيوش الأمراء علي وعبدالله في هذه المواقع لبقية الحرب لمواجهة القوات العثمانية في المدينة المنورة ورجال قبائل شمر في الداخل.

بعد أن أثبتت الحملة ضد سكة حديد الحجاز نجاحها بالنسبة لفيصل ولورنس، وسعوا لإيجاد طرق جديدة لمواصلة الحرب، إلا أن لورنس لاحظ أن بعض رجال

القبائـل ينسـاقون للعـودة إلـى أوطانهـم، بينمـا في الوقـت نفسـه، كان رجـال العشـائر السـورية يصلـون إلـى "وجـه" ويحثـون فيصـل علـى نقـل الثـورة إلـى قبائلهـم، وهـو يعدهـم بطلـب الدعـم. وكان مـن أبـرز هـؤلاء "عـودة أبـو تايـه»، زعيـم قبيلـة الحويطـات المحاربـة، وكذلـك الزعيمـان السـوريان "نسـيب البكـري" و"زكـي دروبـي"، حيـث كانـت تطلعـات هـؤلاء القـادة العـرب متوافقـة بدقـة مع تطلعـات كل مـن فيصـل ولورنـس، وأدرك فيصـل أن المناطـق الخصبـة في فلسـطين وسـوريا ستسـهل بقـاء الدولـة الهاشـمية المسـتقبلية في الحجـاز.

بحلـول مايـو 1917، وصلـت تفاصيـل اتفاقيـة سـايكس بيكـو إلـى شـبه الجزيـرة العربيـة، وكانـت هـذه الاتفاقيـة، التـي صادقـت عليهـا بريطانيـا وفرنسـا وروسـيا في مايـو 1916، ستقسـم الأراضـي العثمانيـة في شـبه الجزيـرة العربيـة والمشـرق بيـن قـوى الحلفـاء بعـد الحـرب، وتمنـى لورنـس وقتهـا إحبـاط المخططـات الفرنسـية بشـأن سـوريا مـن خـلال المسـاعدة في إنشـاء دولـة عربيـة قائمـة يحكمهـا فيصـل. مـن المؤكـد أن هـذه الترتيبـات السـرية أثـارت اشـمئزازه خـلال الفترة المتبقيـة مـن الحـرب، وكان على لورنـس أن يحـاول إبقـاء العـرب إلـى جانـب الحلفـاء بينمـا كان يعلـم في نفـس الوقـت أن تطلعاتهـم إلـى الاسـتقلال لـن تتحقـق.



صُـور لورنـس عـام 1917 مـع عـودة أبـو تايـه، قائـد الحـرب في قبيلـة الحويطـات، حيـث كان "عـودة" زعيـم حـرب العصابـات. وفي عـام 1917، قـام لورنـس بجولـة عسـكرية معه للاسـتيلاء على مينـاء العقبـة الاسـتراتيجي.

في خطاب إلى "كلايتون" (وهو في هذا الوقت عميد) كتب لورنس في يونيو 1917، أن الضغط الذي فرضته هذه الازدواجية عليه كان واضحاً، لحد اقتراح الانتحار: "كلايتون، لقد قررت أن أذهب وحدي إلى دمشق، على أمل أن أُقتل في الطريق، حاولت توضيح هذا العرض قبل أن أمضي أبعد من ذلك، نحن ندعوهم للقتال من أجلنا على كذبة، وأنا لا أطيقها".

في هذا الوضع السياسي المشتعل، تركز اهتمام لورنس على العقبة، آخر ميناء على البحر الأحمر لا زال في أيدي العثمانيين، حيث أدرك لورنس أنه إذا أمكن الاستيلاء عليه، فيمكن أن يكون بمثابة قاعدة لتقدم جيش فيصل نحو فلسطين ولبنان وسوريا نظراً لكونه محمياً بشكل جيد للغاية من الهجوم والإنزال البحري، كما أن العقبة مهمة استراتيجياً، حيث سيؤدي الاستيلاء عليها إلى زيادة عزلة المدينة المنورة، مع السماح بمزيد من الهجمات على الأجزاء الشمالية من سكة حديد الحجاز، كما أن وجود جيش عربي متمركز هناك سيبقي القوات العثمانية في سيناء وفلسطين غير متوازنة بينما تستعد للدفاع ضد المزيد من الهجمات البريطانية.

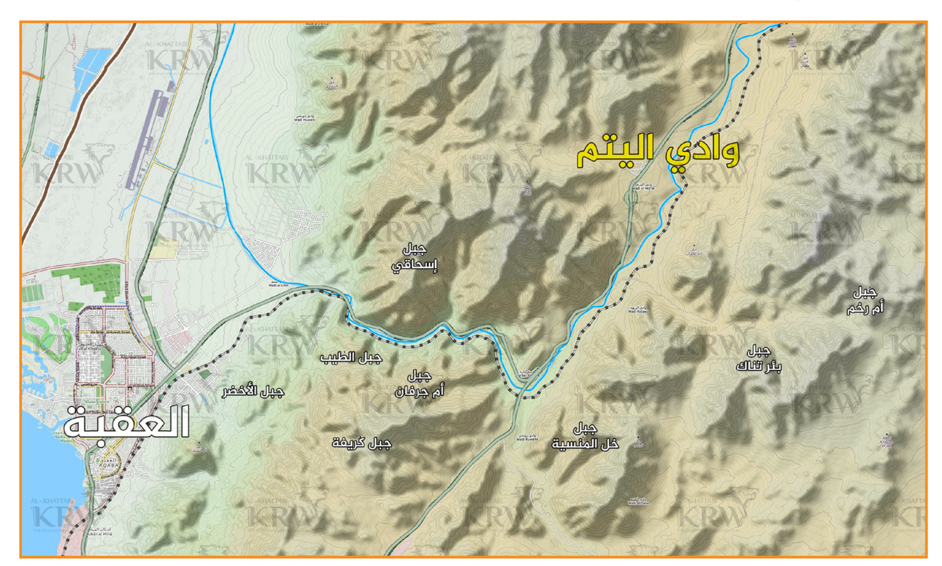


هاجم رجال القبائل العربية العقبة في 6 تموز (يوليو) 1917، وأصبحت هذه واحدة من أكثر الصور شهرة للحملة والتقطها لورنس بنفسه.

قدم لورنس في البداية هذه خطة حملة الاستيلاء العقبة على أنها غارة طويلة المدى مع اعتبار "معان" هدف لها أيضاً، كما أنها سوف تتزامن مع غارة كبرى ينفذها "نيوكمب" في اتجاه العلا. في 9 مايو 1917 غادر لورنس "وجه" مع مجموعة صغيرة؛ من بينهم الشريف ناصر وعودة و"زعل أبو تايه» ونسيب البكري وزكي دروبي ومحمد الذيلان، وسافرت معه مجموعة من 17 رجلاً من

رجال قبيلة العقيل بأمر ابن دغيثر، حيث كانت الخطة هي إجراء اتصالات مع قبيلة الحويطات بالقرب من العقبة وحشدهم للهجوم على المدينة. حملت مجموعة لورنس أكثر من 20000 جنيه إسترليني من العملات الذهبية من أجل دفعها لرجال قبائل الحويطات ليهجموا على المدينة.

اعتاد لورنس أكثر على الحياة في الصحراء، ومع ذلك، وجد الأسابيع التي تلت ذلك مرهقة بشكل خاص، حيث كانت الخطة هي اتباع نهج اكتساح واسع إلى الشمال الشرقي من العقبة، ومهاجمة المدينة من خلال التقدم عبر وادي اليتم، وللقيام بذلك، كان عليهم تغطية أكثر من 1000 كيلومتر (620 ميل) من الصحراء، كما كان أحد الأقسام مخيفاً جداً حتى بالنسبة للعرب لدرجة أنه يعرف باسم «الهول» أو «الرعب».



خريطة وادي يتم

عند عبور سكة حديد الحجاز في 19 مايو، نفذ لورنس عمليات هدم وقطع خط السكة الحديدية على أمل أن يشك الأتراك في أن هذه كانت مجرد مجموعة مداهمة، لكن كانت مخاوفه ربما لا أساس لها من الصحة، لأن مثل هذا النهج تجاه العقبة لن يتصوره القادة الأتراك.

خلال هذا الجزء من المسير، بحث لورنس عن أحد العبيد ويدعى "قاسم"، كان قد سقط عن البعير وفُقد، وكان الأمر خطيراً وربما متهوراً، وكان رفاقه

المسـافرين أقـل تعاطفـاً مـع محنــة قاسـم. وصـف لورنــس فيمـا بعـد عودتـه، بعـد أن أنقـذ قاسـم المفقـود: «أشـار عُـودة إلـى الشـخص المنحنـي البائـس واسـتنكر فعلـي، واسـتغرب لمـاذا أنقـذ هـذا الشـخص الـذي لا يسـاوي حتـى ثمـن البعيـر ...» لكـن لورنـس قاطعـه بعبـارة «لا بـل يسـاوي الكثيـر يـا عـودة»، ففكـر عُـودة بعقلـه البسـيط، ثـم ركـب بالقـرب مـن قاسـم، وضربـه بحـدة، محـاولاً جعلـه يكـرر ثمنـه مثـل الببغـاء.

بعـد تجنيـد بعـض رجـال القبائـل الصديقـة في الطريـق، تـرك لورنـس مجموعتـه في "وادي سـرحان" وأكمـل شـمالاً للقـاء القـادة السـوريين، وانطلـق في رحلـة منفصلـة طولهـا حوالـي 800 كيلومتـر (500 ميـل) حتـى ضواحـي دمشـق، حيـث التقـى بالقـادة المحلييـن وأقنعهـم بعـدم بـدء تمردهـم مبكـراً، وخـلال هـذه الجولة، نفـذ هجومـاً مضلـلاً، وهـدم جسـراً بالقـرب مـن رأس بعلبـك، وقـد أدى هـذا الهجـوم إلـى إخـراج سـت كتائـب عثمانيـة مـن المواجهـة، حيـث كانـت هـذه الكتائـب جاهـزة لمواجهـة أي انتفاضـة عامـة، كمـا قـام لورنـس أيضـاً بعمليـة اسـتطلاع، حيـث كان يأمـل أن يفيـد القيـادة العامـة عنـد التخطيـط لمزيـد مـن العمليـات في فلسـطين وسـوريا.



الاستيلاء على العقبة، مايو-يوليو 1917

بحلـول مايـو 1917، اسـتولت القـوات العربيـة على مكـة والمـدن السـاحلية على ساحل البحـر الأحمـر، بينمـا صمـدت الحاميـة العثمانيـة الرئيسـية في المدينـة، وفي محاولـة لكسـب المبـادرة، اتفـق لورنـس وفيصـل على أن الاسـتيلاء على العقبـة سيسـمح للجيـش العربـي الشـمالي بالتحـرك نحـو فلسـطين ومـن هنـاك إلـى سـوريا.

1. في 10 مايـو 1917، تـرأس لورنـس وعـودة أبـو تايـه وشـريف ناصـر مجموعـة صغيـرة مـن رجـال قبيلـة العقيـل مـن الوجـه.

2. بعـد أن قـام لورنـس بتقـدم واسـع عبـر الصحـراء، وصـل لورنـس ومجموعتـه إلـى وادي السـرحان في 27 مايـو، حيـث قامـوا بتجنيـد رجـال قبائـل الحويطـات للهجـوم الأخيـر على العقبـة.

3 - في 2 تمـوز / يوليـو، تمـت مواجهـة كتيبـة تركيـة في أبـي اللسـن وتـم مهاجمتهـا، كمـا نُفـذت هجمـات متفرقـة على سـكة حديـد الحجـاز.

4 - استسـلمت الحاميـة التركيـة الرئيسـية في العقبـة، والمكونـة مـن عناصـر فـوج المشـاة 161، في 6 تمـوز / يوليـو.

5. غـادر لورنـس العقبـة عبـر سـيناء وحمـل أخبـار السـيطرة على هـذه المدينـة السـاحلية الحيويـة، ووصـل إلـى السـويس في 9 يوليـو، ثـم إلـى القاهـرة في اليـوم التالـي.

عنـد عودتـه إلـى وادي السـرحان في 17 يونيـو، وجـد لورنـس أن القـادة العـرب قـد جنـدوا 500 رجـل مـن الحويطـات، و150 رجـلاً مـن الرولـة والشـرارات و35 مـن رجـال القبائـل مـن الكويكبـي، ثـم بـدأ تقدمـه الأخيـر تجـاه العقبـة بهـذه القـوة، في حيـن أن الدفاعـات العثمانيـة الرئيسـية في المدينـة كانـت مصممـة للدفـاع ضـد هجـوم مـن البحـر، كمـا كانـت هنـاك أيضـاً قـوات عثمانيـة بيـن قـوات لورنـس والعقبـة، ودمـر الأتـراك الآبـار الواقعـة شـمال شـرقي المدينـة، ممـا يشـير إلـى أنهـم كانـوا متيقظيـن لاحتمـال ظهـور قـوة مهاجمـة مـن الصحـراء.

نُفـذت هجمـات متفرقـة ضـد السـكك الحديديـة، وفي حوالـي 30 يونيـو، اسـتولى

فريـق مـن الحويطـات على الحصـن العثمانـي في فويلـة، ممـا أسـفر عـن مقتـل الحاميـة بأكملها تقريبـاً انتقامـاً مـن المعاملـة التركيـة الأخيـرة للسـكان المحلييـن، لكـن عناصـر الفـوج 178 الأتـراك قـد تمكنـوا مـن اسـتعادة الحصـن في نهايـة المطاف.

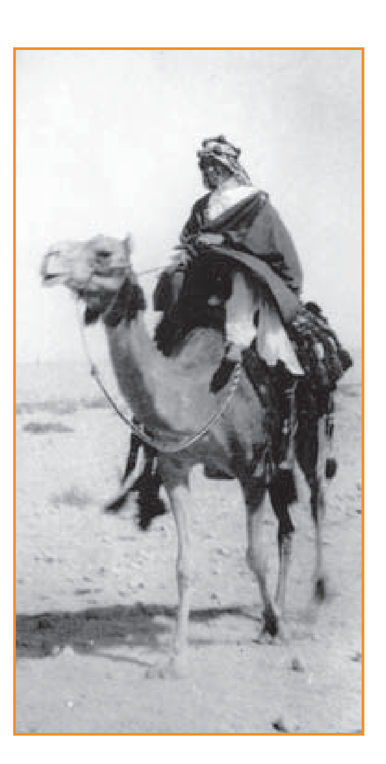
علـم لورنــس بعـد ذلـك أن الوحـدة الرئيسـية لهــذه الكتيبـة خيمـت في "أبـي اللسـن"، ممـا منـع بشـكل أساسـي تقدمـه إلـى العقبـة. ثـم في 2 يوليـو، قـرر لورنس والقـادة العـرب الهجـوم، بعـد أن وضعـوا أولاً قواتهـم القبليـة في التـلال المحيطـة بـ "أبـي اللسـن"، ولـم يتمكـن لورنـس مـن تشـجيع العـرب على شـن هجـوم حاسـم على الكتيبـة التركيـة، فـآل الأمـر إلـى معركـة ناريـة طويلـة ومتقطعـة. وفي ظـل الحـرارة الشـديدة بعـد الظهـر، توقـف الهجـوم تمامـاً حيـث لجـأ رجـال القبائـل إلـى مـأوى مـن الشـمس.

واجـه لورنــس معضلـة، وهـي أنــه كلمـا طالـت فتـرة توقـف الهجـوم، زاد احتمـال وصـول التعزيـزات التركيـة، وإذا تـم إحبـاط قوتـه في هـذه المرحلـة، فلـن يقتصـر الأمـر على أنهـم لـن يأخـذوا العقبـة، ولكنهـم سـيواجهون المهمـة المسـتحيلة المتمثلـة في الاضطـرار إلـى التراجـع إلـى "وجـه»، ولـم يكـن هـذا خيـاراً واقعيـاً. حـدث بعـد ذلـك حـوار مـع عـودة أبـو تايـه، قـام عـودة بعدهـا بتوبيـخ رجـال القبائـل لقلـة فاعليهـم، وقـد أدى ذلـك إلـى النتيجـة المرجـوة، حيـث قـاد عـودة نحـو 50 فارسـاً نحـو الكتيبـة التركيـة، وتسـبب الهجـوم في إخـلال تـوازن الأتـراك ففقـدوا تماسـكهم، ممـا تسـبب في مقتـل حوالـي 300 شـخص بينمـا تـم أسـر 160.

اُجتيحـت المزيـد مـن الحاميـات الصغيـرة النائيـة خـلال تلـك الأيـام، وشـملت هـذا المواقـع التركيـة في جويـرا وكثيـره والحضـرة، وتـم إقنـاع أحـد الضباط الأتراك الأسـرى بإرسـال رسـائل إلـى الحاميـة في العقبـة تقـدم لهـم تأكيـدات بأنهـم سـيعاملون بشـكل لائـق إذا مـا استسـلموا، ووجـد لورنـس ورفاقـه المزيـد مـن النقـاط مهجـورة أثنـاء قيامهـم بمسـيرتهم الأخيـرة في المدينـة. وفي 5 يوليـو، حـدث تبـادل قصيـر لإطـلاق النـار في "الخضـرة" في المسـاء، ثـم هـدأ الطرفـان ليـلاً، ثـم وجـد لورنـس أن قوتـه قـد تضخمـت إلـى أكثـر مـن 1000 رجـل مـع وصـول رجـال قبائـل آخريـن مـن الحويطـات والأحيـوات للمشـاركة في الهجـوم النهائـي.

أُثير قلق لورنس أثناء محاولات التفاوض لحث الأتراك على الاستسلام، لكن بعد تبادل لإطلاق النار في صباح يوم 6 يوليو، قرر القائد التركي في العقبة الاستسلام، كما لم تأتي من «معان» أي تعزيزات في الوقت المناسب. وبالصدفة، وصل زورق حربي تابع للبحرية الملكية، "سليف فوي"، وبدأ في قصف المدينة. وبمجرد اندفاع العرب مرة أخرى استولوا على المدينة دون إطلاق رصاصة واحدة، وقد لخص لورنس هذا الحدث لاحقاً في الفصل الأخير من مذكراته عن الحرب، "أعمدة الحكمة السبعة»: "ثم انطلقنا خلال عاصفة رملية إلى العقبة على بعد أربعة أميال، وقفزنا في البحر، في السادس من تموز (يوليو)، بعد شهرين فقط من انطلاقنا من "وجه".

لقد كانت بالفعل حملة جريئة، وسيحاول لورنس اتباع أسلوب واسع آخر عند محاولته تفجير جسر في وادي اليرموك في وقت لاحق من العام نفسه، وقد أُعجب بالثقة المتزايدة لرجال القبائل العربية عند مواجهة القوات التركية النظامية، كما أن الاستيلاء على العقبة سيسمح لجيش فيصل العربي الشمالي بالانتقال إلى الساحل. وفي الأشهر التي أعقبت وجودهم في العقبة؛ سيشكلون تهديداً للقوات التركية في شبه الجزيرة العربية، مع احتمال حصار حامية المدينة المنورة.



يمتطي لورنس إحدى جماله في العقبة عام 1917، وقد زاد ظهوره في التخطيط لحملة أكبر بعد الاستيلاء على المدينة.



اجتمـع رجـال القبائـل العربيـة في وادي إيثـم، شـمال العقبـة، في 5 يوليـو 1917، بعـد أن نفـذوا أسـلوباً هجوميـاً تدريجيـاً تجـاه المدينـة على مـدى عـدة أسـابيع. قـاد لورنـس وعـودة أبـو تايـه هجومـاً نهائيـاً على العقبـة في 6 يوليـو 1917، ويُعتقـد أن لورنـس التقـط هـذه الصـورة في اليـوم الأخيـر قبـل الهجـوم.

علـم لورنـس أيضـاً أنـه تـم التخطيـط لمزيـد مـن العمليـات في فلسـطين وأن الثـورة العربيـة يمكـن أن تلعـب دوراً مهمـاً فيهـا مـن خـلال إعاقـة الجنـاح اليسـاري التركـي، ولقـد كانـت هـذه أحـد أكثـر النجاحـات في الحـرب، كمـا كانـت مصـدر إلهـام لعمليـات الصحراء اللاحقة خلال الحرب العالمية الثانية.

انطلـق لورنـس في 7 يوليـو؛ ليعبـر سـيناء مـن أجـل الوصـول إلـى السـويس، ومـن هنـاك إلـى القاهـرة التـي وصـل إليهـا في 10 يوليـو، فوجـد أن "موراي" قـد تـم اسـتبداله بالجنـرال السـير "إدموند اللنبـي"، الـذي قـدر على الفـور أهميـة الاسـتيلاء على العقبـة وإمكانـات الثـورة العربيـة، كمـا حصـل لورنـس على وعـود بمزيـد مـن الدعـم، وسـيعود الفضـل في انتصـار الثـورة العربيـة الكبـرى إلـى هـذا الإمـداد المسـتمر بالأسـلحة والأفـراد والمعـدات، مثـل سـيارات رولـز رويـس المدرعـة.



اللنبي

حرب العصابات 1917-1918

أدرك لورنس أن الاستيلاء على العقبة سيفتح احتمالات جديدة استراتيجية، ففي الشمال الشرقي يوجد طريق يبدأ في وادي إيثم والذي يمكن استخدامه للتقدم إلى فلسطين وسوريا، كما أصبح بإمكانهم الآن العمل بشكل فعال ضد سكة حديد الحجاز، مع استخدام العقبة كقاعدة للجيش العربي الشمالي. كما تم وضع المحطات الحيوية التركية في معان والمدورة على مسافة قريبة لتصبح أهدافاً للجيش العربي في أواخر عام 1917 وعام 1918، وإن كان من الصعب تدميرها بسبب حجم الحاميات العثمانية هناك.

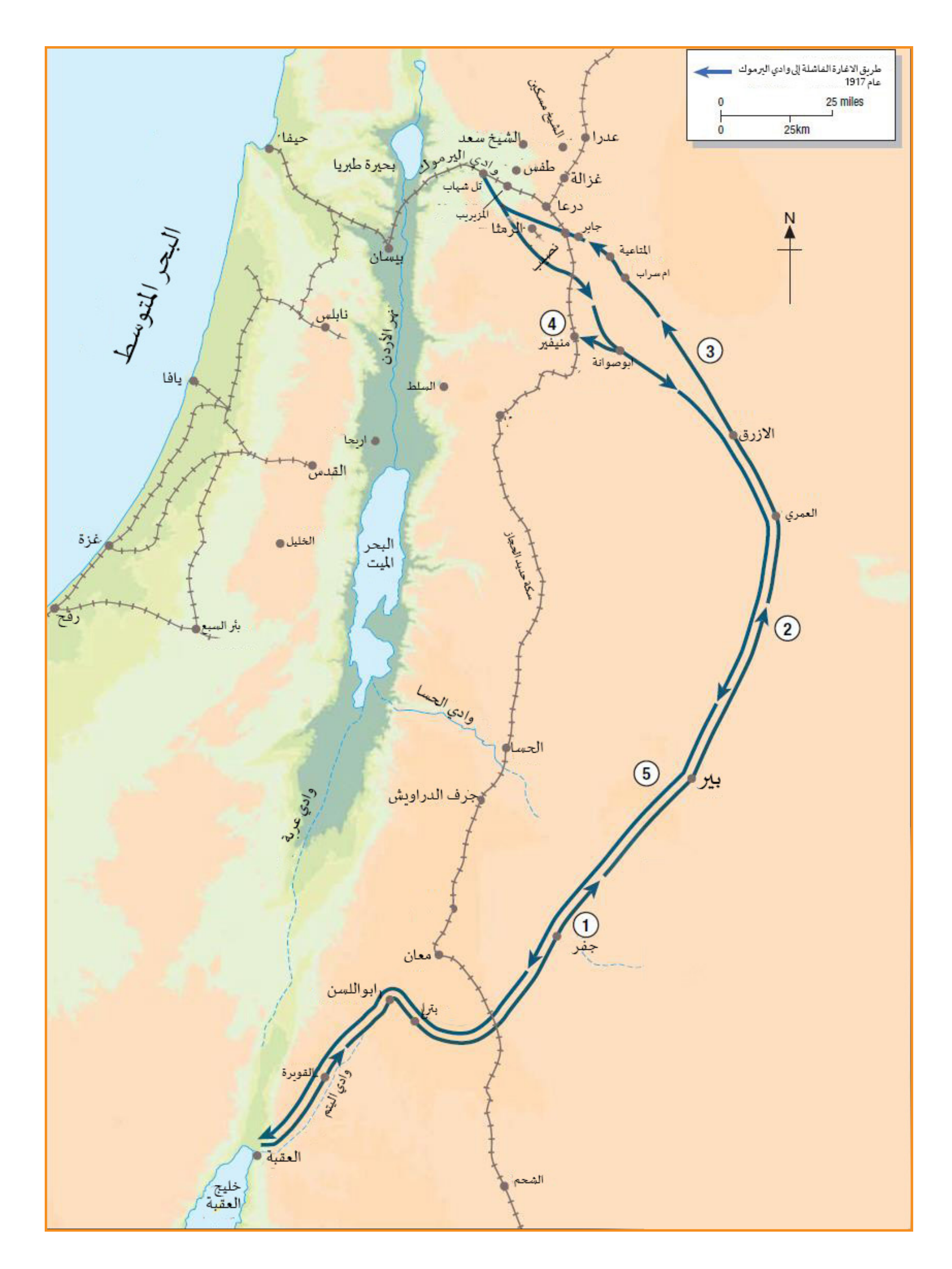


جعفر باشا العسكري والأمير فيصل والمقدم جويس يشربون الشاي في وادي قنطلة في أغسطس 1917، ومع نمو حجم الجيش العربي الشمالي، تولى ضباط عثمانيون سابقون مثل جعفر باشا قيادة هذا الجيش، وقاد جويس البعثة البريطانية في «عملية القنفذ"، مع الجيش العربي الشمالي، كما وجد لورنس نفسه مسؤولاً عن المجموعة القبلية غير النظامية.

في الأسـابيع التـي أعقبـت الاسـتيلاء علـى العقبـة، انتقـل الجيـش العربـي الشـمالي مـن "وجـه" إلـى العقبـة، وبمسـاعدة البحريـة الملكيـة، كمـا تمـت ترقيـة لورنـس إلـى رتبـة رائـد وكان يأمـل أن يصبـح الضابـط البريطانـي الأول في العقبـة، لكـن تـم تعييـن المقـدم "جويـس" في القيـادة، وظـل لورنـس مسـؤول الاتصـال الرئيسـي مـع فيصـل وأيضـاً كضابـط بريطانـي كبيـر مـع الوحـدات القبليـة، وهـذا هـو الـدور الـذي سـيؤديه لورنـس بشـكل أساسـي حتـى نهايـة الحـرب.

لقـد نمـا الجيـش العربـي الشـمالي الآن ليشـمل كتيبـةً نظامية وقـوات غيـر النظامية مـن رجـال القبائـل العربيـة. أمـا الكتيبـة النظاميـة فقـد كانـت بقيـادة "جعفـر باشـا العسـكري" مـع ضبـاط عثمانييـن سـابقين، وكان قوامهـا حوالـي 2000 رجـل، كمـا كان معظمهـم مـن الأسـرى السـابقين، الذيـن تـم تنظيمهـم على أسـس تقليديـة، وتـم تقسـيم الجيـش النظامـي إلـى فرقتيـن، يدعمهمـا فيلـق الجمـال، وبطاريـة مدفعيـة، ومفـرزة رشاشـات ووحـدات لوجسـتية وطبيـة مرتبطـة بهـا، وكانـت القـوة القبليـة غيـر النظاميـة مصـدر قلـق لــ «لورنـس"، حيـث تضخمـت الوحـدات القبليـة غيـر النظاميـة إلـى حوالـي 6000 رجـل مـن قبائـل مثـل الحويطـات وبنـي علـي والجهينـة وآخريـن، ووقعـت القيـادة التكتيكيـة على عاتـق قـادة كل مجموعـة قبليـة، بينمـا أشـرف لورنـس وفيصـل على الاتجـاه العـام لأعمالهـا.

كانـت هـذه القـوة الكبيـرة مدعومـة مـن الـزوارق الحربيـة التابعـة للبحريـة الملكيـة الراسـية في العقبـة لتقديـم الدعـم النـاري في حالـة الهجـوم التركـي المضـاد، كمـا تـم توفيـر الدعـم الجـوي مـن خـلال رحـلات مـن الفيلـق الملكـي الجـوي لمواجهـة أنشـطة الطائـرات التركيـة التـي هاجمـت العقبـة بشـكل يومـي مـن قاعدتهـا في معـان، وقامـت أيضـاً هـذه الرحـلات الصغيـرة بالاسـتطلاع، وهاجمـت القـوات التركيـة المتواجـدة على الأرض، وتوجهـت بانتظـام إلـى معـان لتنفيـذ غـارات قصـف، وكان دعـم كل هـذا النشـاط والتدفـق المسـتمر للأمـوال انطلاقـاً مـن القاهـرة، بحيـث كان يُصـرف كل شـهر آلاف الجنيهـات مـن العمـلات الذهبيـة كأجـور للقـوات العربيـة، وكذلـك لتمويـل أنشـطة أكبـر.



1. غــادر لورنــس معســكره في وادي إيثــم، إلــى شــمال العقبــة، في 24 أكتوبــر 1917، مــع كل مــن المــلازم لويــد وود وتروبــر ثــورن ومجموعــة مــن رمــاة المدافــع الرشاشــة في الجيــش الهنــدي بقيــادة جمــدار حســن شــاه.

وانضم إليهم لاحقاً الشريف علي بن حسين الحارثي وعبد القادر وكيل البعثة الفرنسية. وفي "بير" قاموا بتجنيد مجموعة صغيرة من رجال قبائل بني صخر، كما قرروا أنه سيتم القيام بمحاولة لتفجير جسر في وادي اليرموك دعماً لهجوم اللنبي.

2. وصلت قوات لورنس إلى قلعة الأزرق في 4 نوفمبر، وهناك تم تجنيد المزيد من رجال القبائل من قبيلة السرحان، وهرب عبد القادر وخاف لورنس أن يكون ذهب إلى الأتراك.

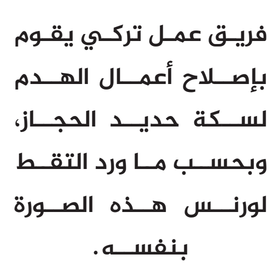
3. صدر قرار بمحاولة تفجير الجسر الواقع في تل الشباب شمال شرقي درعا، وهو جسر حيوي على قطاع وادي اليرموك من السكة الحديدية، وتم إجراء محاولة فاشلة على الخط أثناء ليلتي 7/6 نوفمبر.

4. في رحلة العودة، تم تلغيم قطار قائد الفيلق الثامن العثماني بنجاح في مينفير وعادت المجموعة إلى الأزرق في 12 نوفمبر، وادعى لورنس في وقت لاحق أنه بعد ذلك ببعض الوقت أُعتقل في درعا حيث تعرض للتعذيب والاغتصاب.

5. عاد لورنس إلى العقبة حيث وصل في 26 نوفمبر 1917.

على الرغم من نجاح غارة العقبة وتجمع الجيش العربي هناك، إلا أن لورنس قد مر عليه وقت عصيب، ومرة أخرى سقطت الثورة في فترة من الخمول، ومع تسريب مزيد من التفاصيل حول اتفاقية سايكس بيكو، ساءت العلاقات مع القادة الهاشميين، ومع وصول العلاقات الأنجلو عربية إلى أدنى مستوى لها على الإطلاق، حاول لورنس تقليل الأضرار من خلال تفسير الاتفاقية من ناحية أكثر إيجابية لفيصل ومن خلاله للشريف حسين، كما زادت مخاوف لورنس السياسية مع وجود معلومات تفيد بأن الحكومة العثمانية تعرض مبالغ كبيرة من الذهب على زعماء القبائل وحتى على حسين لإنهاء تمردهم، ولاحت في الأفق إمكانية عمل الأتراك هجوم مضاد على العقبة، في حين خرجت قوة كبيرة من معان، إلا أن هذا الهجوم التركي تلاشى في غضون بضعة أشهر.





فريق عمل تركي يقوم بإصلاح أعمال الهدم لسكة حديد الحجاز، وبحسب ما ورد التقط لورنس هذه الصورة بنفسه.

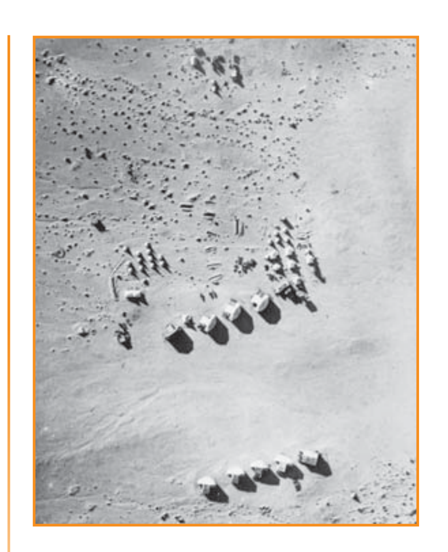
في الوقت نفسه، كان لا بد من استمرار النشاط العسكري واستمرار الإغارات على سكة حديد الحجاز، وزادت حجم وجرأة العمليات العسكرية مع نمو الجيش العربي واكتساب الثقة في مواجهة القوات التركية أثناء شن الغارات، وفي غارة واحدة في يوليو 1917، تم تفجير أكثر من 500 عبوة على الخط جنوب "العلا"، وتطورت التكتيكات المستخدمة أثناء غارات السكك الحديدية أيضاً، وكان لورنس أحد المحركين الرئيسيين في هذا الصدد، حيث أدرك أنه عند العمل بالقرب من حاميات السكك الحديدية الأكبر، فإن قواته القبلية لن تستطيع أن تشتبك مع الحاميات التركية على نفس المستوى، ورأى لورنس أن زيادة مستوى القوة النارية داخل مجموعاته المهاجمة سوف تتغلب على هذا الخلل في التوازن، كما حاول أن يضم فرق المدافع الرشاشة وفرق الهاون إلى مجموعات الإغارة، وتم توسيع هذه السياسة التكتيكية فيما بعد لتشمل المدافع الجبلية والمدفعية المحمولة على الشاحنات والعربات المدرعة، وقد استخدم لورنس بالفعل هذه القوة النارية

كمثـال نموذجـي في غـارة على "المـدورة" ليلـة 17-18 سـبتمبر 1917.

كان هـدف لورنـس الأصلـي مـن إغـارة المـدورة هـو البئـر، وكان يأمـل في تدميـره وأن يتـرك قطاعـاً بطـول 240 كـم (150 ميـلًا) مـن السـكة الحديديـة بـدون مصـدر للميـاه، فاصطحـب معـه ضابطـي صـف بريطانييـن (الرقيـب ييلـز والعريـف بـروك) للعمـل على مدفـع رشـاش خفيـف مـن طـراز لويـس ومدفـع هـاون مـن طـراز سـتوكس.

لـم تتمكـن قـوات لورنـس مـن الاقتـراب مـن محطـة المـدورة بسـبب الحاميـة التركيـة التـي تضـم كانـت تضـم أكثـر مـن 300 رجـل هنـاك، لكن فرق الرشاشـات الخفيفـة وقذائـف الهـاون ابقتهـم محاصرين بينمـا قـام لورنـس بوضـع لغـم كبيـر على جسـر قريـب، لكـن هـذا اللغـم لـم يدمـر الجسـر فحسـب، بـل دمـر أيضـاً قطـاراً كان يمـر فوقه، ولاحـظ لورنـس لاحقاً أن هـذا القطـار كان يحمـل النسـاء والمرضـى على حـدٍ سـواء، وستُسـتخدم هـذه التكتيـكات في العديـد مـن الغـارات التاليـة، وسـتعمل على أن تبقـى فـرق إصـلاح القطـار تحـت قـوة نيـران أكبـر.

بيـن 26 سـبتمبر و1 أكتوبـر، قـاد لورنـس والكابتـن "بيسـاني" مـن البعثـة الفرنسـية مجموعـة مـن 80 رجـلاً مـن القبائـل في غـارة أخـرى على السـكك الحديديـة، ومـع تدميرهـم لأجـزاء مـن السـكك الحديديـة وجسـر هـام، فقـد تمكنـوا أيضـاً مـن تدميـر قطـار، كمـا بـدأ الجيـش العربـي النظامـي في التوغـل في جنـوب سـيناء، وفي 21 أكتوبـر



وبغـض النظـر عـن مهاجمـة القـوات التركيـة، قامـت الطائـرات بأعمـال اسـتطلاعية مهمـة كمـا كانـت على تواصـل مـع الجيـش الشـمالي العربـي. هـذه صـورة جويـة اختباريـة لقاعـدة الفيلـق الجـوي الملكـي في العقبـة عـام 1917.

هـزم الجيـش العربـي قـوة تركيـة كبيـرة في وادي موسـى بالقـرب مـن "البتـراء". وكان لورنـس يرغـب في تسـهيل سـفر الطائـرات مـن السـويس فـوق سـيناء، لأنـه كان مؤمنـاً منـذ فتـرة طويلـة بالقـوة الجويـة، وفي أغسـطس 1917 بـدأ في إنشـاء مطـارات مؤقتـة في سـيناء، حيـث تـم تزويـد هـذه الطائـرات بالبنزيـن والقنابـل، وأثبتـت لاحقـاً أنهـا ذات قيمـة كبيـرة للطائـرات التـي كانـت تسـافر في غـارات قصـف على الجنـاح الأيسـر التركـي.

في هـذه الفتـرة المحمومـة بيـن سـبتمبر وأكتوبـر 1917، انخـرط لورنـس في سلسـلة مـن الهجمـات المسـتمرة على سـكة الحديـد، امتـدت حتـى الكيلومتـر 589 جنـوب "معـان". وأثنـاء هـذه الغـارة، دمـر قطـاراً، لكنـه أصيـب أيضـاً في جنبـه برصاصـة تركيـة.

شـارك لورنـس أيضـاً معرفتـه بالديناميـت المكتسـبة حديثـاً مـع مجموعتـه القبليـة. وفي الأشـهر التـي تلـت ذلـك، قامـوا بتفجيـر 17 قطـاراً بالديناميـت، وتسـببوا في دمـار كبيـر على طـول السـكك الحديديـة.

في 11 أكتوبـر، طـار لورنـس إلـى القاهـرة لعقـد اجتمـاع ثـان مـع الجنـرال "اللنبـي"، وكان "اللنبـي" يخطـط لشـن هجـوم جديـد على خـط غـزة - بئـر السـبع (المعركـة الثالثـة في غـزة) والتـي كان مـن المقـرر أن تبـدأ في نهايـة الشـهر، وقـد تـم وعـد لورنـس سـابقاً بإمكانيـة بـدء تمـرد عـام في سـوريا، وهـو أمـر لـم يعـد يعتقـد أنـه ممكـن وأدرك أنـه سـيؤدي إلـى أعمـال انتقاميـة واسـعة بيـن السـكان السـوريين، لـذا اقتـرح أن يدمـر الجسـر الغربـي في وادي اليرمـوك عنـد جسـر الحمـة، وكان هـذا جسـراً فولاذيـاً مثيـراً للإعجـاب يمتـد على مضيـق كبيـر، وعلى الرغـم مـن كونـه جـزءاً رئيسـياً مـن البنيـة التحتيـة، فقـد أشـارت المعلومـات الاسـتخباراتية أنـه كان يحرسـه عشـرات الحـراس فقـط، وبالفعـل فـإن تدميـره سـيؤدي إلـى توقـف حركـة السـكك الحديديـة لمـدة أسـبوعين على الأقـل وقطـع الخـط الرئيسـي للأتـراك بيـن القـدس ودمشـق، كمـا كان مـن المتوقـع أن يتمـرد الشـعب السـوري بعـد ذلـك ويهاجـم القـوات التركيـة أثنـاء انسـحابها سـيراً على الأقـدام، ووافـق لورنـس على محاولـة تفجيـر هـذا الجسـر في 5 نوفمبـر أو في إحـدى الليالـي الثـلاث التاليـة، وكان مشـروعاً ضخمـاً، وعلى الرغـم مـن أن لورنـس ظـل واثقـاً ظاهريـاً، إلا أن زمـلاءه أدركـوا أنـه كان متوتـراً، وقـال كلايتـون رئيـس المخابـرات: «أنـا قلـق للغايـة بشـأن لورنـس، لقـد تولـى عمـلاً هائـلاً حقـاً».



تعبر قوات الجيش الهندي سيناء على ظهور الجمال، وخلال عامي 1917 و1918، استخدم لورنس فرق مدافع الهاون والمدافع الرشاشة جورخا والهندية لتوفير القوة النارية لقواته القبلية.

خلال هذه المداهمة المهمة حاول لورنس بشكل أساسي تكرار نفس الأساليب التي نجحت معه في العقبة، فقد خطط لتنفيذ أسلوب شامل وواسع، حيث سافر إلى الشمال الشرقي قبل أن يستقر في القلعة الصليبية المدمرة جزئياً في الأزرق، وكان يسافر مع مجموعة صغيرة فقط من رجال القبائل، حيث لم يكن بالإمكان إقناع الكثيرين بالسفر إلى أقصى الشمال، على الرغم من أنه قام فيما بعد بتجنيد رجال بني شكر والسراحيين في الأزرق، وكان برفقته فريق مدفع رشاش للجيش الهندي بقيادة "جمدار حسن شاه" و"الملازم وود" (مهندسون ملكيون) وجندي ملكي (يومانري). كان عبد القادر مرتبطاً بجماعة لورنس، وهو جزائري تم نفيه إلى سوريا وحفيد زعيم حرب العصابات الذي شن حملة طويلة ضد الفرنسيين في القرن التاسع عشر، وكان رئيس البعثة الفرنسية، الكولونيل "بريموند»، قد حذر لورنس من أن قد يكون عبد القادر جاسوساً تركياً، ولكن لورنس تجاهل الأمر برمته.



قلعـة الأزرق بالقـرب مـن عمـان، وكانـت هـذه القـلاع الصليبيـة بمثابـة قاعـدة للورنـس لتنفيـذ الإغـارات في وادي اليرمـوك في نوفمبـر 1917.



الهجوم على سكة حديد الحجاز، 1 يناير 1918

أدى تخصيص سرب من سيارات رولز رويس المدرعة وسيارات تالبوت المجهزة بمدافع 10 بي دي آر وسيارات فورد الخفيفة إلى تزويد الجيش العربي بمستوى عالي من القوة النارية المتنقلة، وفي أواخر عام 1917، جرب لورنس والمقدم جويس هذه السيارات بالسفر عبر البلاد باتجاه سكة حديد الحجاز. وفي 1 يناير 1918، نفذوا سلسلة من الهجمات على الحصون التركية شمال محطة السكك الحديدية المهمة في المدورة، وقد سمحت سيارات رولز رويس المصفحة لقوات لورنس بالاقتراب من المواقع التركية مع إفلات نسبي من العدو. ويصف لورنس لاحقاً هذا باسم «القتال الفاخر»، كما يظهر جويس هنا بالزي الرسمي مع غطاء الرأس العربي، وكان لورنس منذ فترة طويلة يستخدم الجلباب العربي للعمل في الصحراء، وهو يرتدي هنا مجموعة من الجلابيب مماثلة لتلك المعروضة حالياً في متحف أشموليان في أكسفورد.

غـادر لورنــس العقبــة في 24 أكتوبــر، وســلك هــو ومجموعتــه طريــق ملتويــا نحــو «الأزرق" لفتـرة طويلـة لتجنـب الانكشـاف للأتـراك. وحتـى إن تـم اكتشـافه، كان يأمـل أن يخفـي هـذا المسـير في الطـرق الملتويـة هدفـه النهائـي، وفي الأزرق جنـدوا الرجـال المطلوبيـن، لكـن الأمـور بـدأت أيضـاً في التغيـر نحـو الأسـوأ. فغـارة لورنـس على العقبـة كانـت محظوظـة، إلا أن الغـارة على وادي اليرمـوك كانـت سـيئة الحـظ.

اختفـى عبـد القـادر ورجالـه في ليلـة 4-5 نوفمبـر / تشـرين الثانـي، وكان يُخشـى أنـه ذهـب لتحذيـر الأتـراك، وكان الهـدف الأصلـي للورنـس (جسـر الحمـة) في مـكان كان السـكان فيـه مواليـن لتركيـا، وقـد أخبـره القـادة العـرب أنـه لا يمكـن مهاجمتـه بنجـاح، ثـم اختـار بعـد ذلـك مهاجمـة هـدف آخـر، الجسـر في تـل شـهاب.

وقعــت الغــارة الفعليــة نفســها في ليلــة 7-8 نوفمبــر 1917، وبعــد أن اقتــرب مــن الجســر بأكبــر قــدر ممكــن مــن الصمــت، أطلــق مــزارع محلــي النــار على لورنــس ورجالـه، وكُشـف المغيـرون العـرب. بعـد ذلـك أصبحـت الغـارة مهزلـة تقريبـاً، فبينمـا كان لورنــس يتقـدم للأمـام لـزرع متفجـرات على خـط السـكة الحديديـة، فسـقطت بندقيـة أحـد رجـال القبائـل فكشـف الضجيـج أماكنهـم وانتبـه لهـم حـارس تركـي، وبــدأ الحــراس الآخــرون على طــول الخــط في إطــلاق النــار، وتشــتتت مجموعــة لورنـس في الظـلام، وتركـوا متفجراتهـم ومعداتهـم أثنـاء فرارهـم، ولـم يتمكـن فريق المدافـع الرشاشـة الـذي كان مـن المفتـرض أن يقـوم بتغطيـة النيـران من إطـلاق النـار، وعنـد إعـادة تجميـع مجموعتـه، وجـد لورنـس أنـه لـم يعـد لديـه مـا يكفـي مـن المتفجـرات لتفجيـر الجسـر، وبينمـا كانـوا يتراجعـون في الليـل، كان يُسـمع دوي المدفعيـة البريطانيـة التـي كانـت مـن المفتـرض أن تغطـي لهـم، والـذي بـدا أنـه يشـير إلـى فشـله.

أثنــاء التراجــع إلــى الأزرق، نجــح لورنــس في تدميــر اثنتيــن مــن القنــوات لتصريــف الميـاه على الخـط بالقـرب مـن "مينيفيـر"، كمـا دمـر قطـار قائـد الفيلـق العثمانـي الثامــن، وفي حيــن أن هــذا التدميــر كان ناجحــاً، إلا أنــه كان بمثابــة عــزاء لــه في الغــارة الفاشــلة على جســور وادي اليرمــوك.

مـن المعـروف أن لورنــس عــاد إلــى الأزرق في 12 نوفمبـر، لكـن الأيـام التــي تلـت (14-22 نوفمبـر) لا تـزال غامضـة، حيـث وفقـاً لروايتـه الخاصـة في "أعمـدة الحكمـة السـبعة"، غـادر لورنـس لاسـتطلاع درعـا، التـي تتواجـد فيهـا حاميـة تركيـة مهمـة وأيضـاً ملتقـى طـرق على سـكة حديـد الحجـاز، وبينمـا كان هنـاك، ادعـى لورنـس أنـه قـد تـم أسـره وتعـرض للضـرب والتعذيـب، بعـد أن فشـلت محاولتـه في إيهامهـم أنـه شركسـي. وقـد كتـب لاحقـاً أن هـذه المعاملـة السـيئة تلاهـا اغتصـاب القائـد التركـي لـه.



صُور لورنــس مـع حارسـه الشـخصي في العقبـة عـام 1918، أمـا هـؤلاء الرجـال في الغالـب تـم تجنيدهـم مـن قبيلـة العقيـل.

ظـل هـذا الحــدث مـن أكثـر الأحــداث إثـارة للجــدل في قصــة لورنـــس، حيــث يميـل كتـاب السـيرة الذاتيـة في وقـت لاحـق إلـى التشـكيك في روايتـه في "أعمـدة الحكمـة السـبعة"، كمـا ألقـى مايـكل آشـر على وجـه الخصـوص -وهـو جنـدي سـابق ومسـافر صحـراوي ومؤلـف كتـاب «لورنـس: ملـك شـبه الجزيـرة العربيـة الغيـر متـوج»- الضـوءَ على التناقضـات بيـن مذكـرات لورنـس وأعمـدة الحكمـة السـبعة، حيـث مـن المؤكـد أن لورنــس عــاد إلــى العقبــة في 25 تشـرين الثانــي (نوفمبـر)، ولا يـزال هنـاك شـك كبيـر حـول مـا إذا كان بإمكانـه السـفر مـن الأزرق إلـى درعـا، ثـم مـن الأزرق إلـى العقبـة في الوقـت المتـاح، كمـا لا تـزال حلقـة درعـا بأكملهـا كمـا تـم وصفهـا في "أعمـدة الحكمـة السـبعة" نقطـة خـلاف بيـن كُتـاب السـير الذاتيـة للورنـس وجمهـوره على حـد سـواء، ولقـد أدى هـذ أيضـاً إلـى مزيـد مـن المناقشـات حـول قضايـا مثـل النشـاط الجنسـي

للورنــس، وكذلــك الدوافــع التــي قادتــه لممارســاته الســادية المزعومــة بعــد الحــرب.

كمـا اقتـرح لورنـس لاحقـاً عنـد عودتـه إلـى العقبـة أن يتـم تجنيـد حـراس شـخصيين لـه، وتـم تجنيـد 90 رجـلاً، معظمهـم مـن العقيـل، ويشـير الفحـص الدقيـق لمذكراتـه إلـى أنـه بـدأ في تجنيـد هـؤلاء الحـراس الشـخصيين مسـبقاً، وأنـه لـم يجنـد أكثـر مـن عشـرة رجـال أو نحـو ذلـك، وكان العـدد الإجمالـي الذيـن خدمـوه بهـذه الصفـة بنهايـة الحـرب حوالـي 90، واختـار لورنـس الإبـل ودفـع ثمنهـا، واحتفـظ بهـذه المجموعـة مـن المقاتليـن الأشـداء وراكبـي الإبـل حولـه طـوال الفتـرة المتبقيـة مـن الحـرب.

مـن المؤكـد أن لورنـس توقـع شـكلاً مـن أشـكال التوبيـخ على فشـل غـارة اليرمـوك عندمـا عـاد إلـى العقبـة، ولدهشـته، وجـد أن "اللنبـي" كان سـعيداً بجهـوده، حيـث اختـرق الهجـوم البريطانـي خـط غـزة - بئـر السـبع ونجحـت غـارة لورنـس في تحويـل مسـار بعـض القـوات التركيـة عـن الجبهـة، واسـتولت القـوات البريطانيـة على القـدس في 9 ديسـمبر / كانـون الأول، وفي الفيلـم الرسـمي لدخـول "اللنبـي" إلـى المدينـة يمكـن رؤيـة لورنـس في الخلفيـة، شـخصية قصيـرة ومبتسـمة في زي غيـر ملائـم.



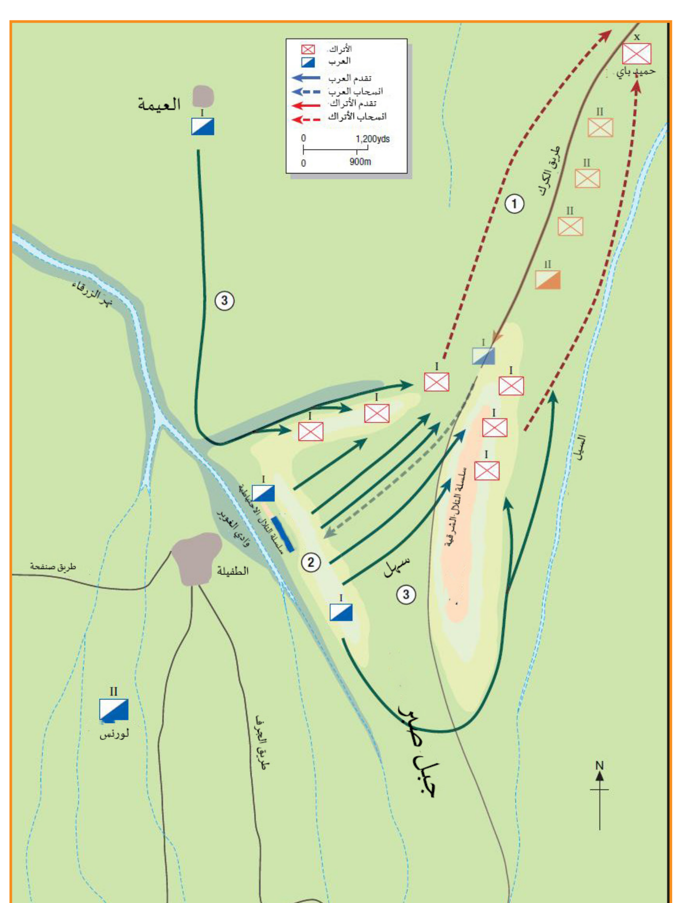
تـــم تخصيـــص ســـيارات رولـــز رويـــس المدرعـــة وســـيارات تالبـــوت وســـيارات فـــورد للجيـــش العربـــي الشـــمالي، ممـــا ســـهل إمكانيـــة التنقـــل، وأعطـــى قـــوة نيـــران للعمليـــات طـــوال عـــام 1918. كانـــت هـــذه الســـيارات مســـلحة برشاشـــات وبنـــادق بـــي دي ار 10

الحملات النهائية، 1917-1918

كانت الأشهر الأخيرة من عام 1917 حافلة بالنسبة للورنس وضباط البعثة البريطانية الآخرين، فقد تم تعزيز الجيش العربي الشمالي بشكل كبير في نوفمبر 1917 ؛ مع وصول سرب من سيارات رولز رويس المدرعة وسيارات تالبوت المزودة بمدافع بي دي ار 10، وشكلت سيارات فورد الخفيفة أيضاً جزءاً من هذا الرتل المتحرك الجديد، أما فيما يتعلق بالمدفعية، فأضيفت بطارية من البنادق الجبلية الفرنسية، وتولى قيادة هذه المدافع الكابتن "بيساني" من البعثة الفرنسية، وبالفعل قدمت هذه الإضافات إمكانات هائلة من حيث الحركة والقوة النارية، وفي الأشهر الأخيرة من عام 1917 جرب الضباط البريطانيون قيادة هذه السيارات في الوديان وعلى التضاريس الوعرة في منطقة العقبة، فوجدوا أن هذه السيارات أدت أداءً رائعاً، وسجّل لورنس لاحقاً أنه يمكن للسيارات المدرعة السفر بسرعة تصل إلى 115 كم / ساعة (70 ميلاً في الساعة)، على بعض التضاريس.

منذ تشرين الأول (أكتوبر)، استطلعت هذه القوات المجهزة حديثاً الطريق المؤدي إلى شمال شرق العقبة، ووضعوا مستودعات الوقود والمياه، ووضعت علامات على المطارات المؤقتة، وظهر في ذلك الوقت أن المشهد مهيأ لمرحلة جديدة من الثورة العربية، والتي من شأنها أن تنقل جيش فيصل إلى فلسطين وفي النهاية إلى سوريا.

معركة الطفيلة 25 يناير 9181



حوالي منتصف نهار 25 يناير 1918، أفادت الكشافة العربية باقتراب القوات التركية على طول طريق الكرك، متجهة في اتجاه الطفيلة. يقود هذه القوة المقدم "حميد باي"، ويبلغ قوامها حوالي 1000 جندي وضمت مدافع هاوتزر جبلية سكودا وأكثر من 20 رشاشاً ورشاشاً خفيفاً، وكان لدى لورنس والأمير زيد حوالي 600 من رجال القبائل، ومدفع جبلي واحد و13 رشاش ورشاش خفيف.

1. تطورت المعركة حول سلسلة من التلال شرق الطفيلة، وتم تعزيز القوات العربية على طول هذا الخط مع تقدم اللواء العثماني للاشتباك، وبين الساعة 13:00 و14:00 احتلت القوات التركية هذه التلال ونشرت أسلحتها في موقع مهم.

2. قرر لورنس سحب قواته إلى موقع أبعد إلى الغرب، والتي أشار إليها لاحقاً باسم «سلسلة التلال الاحتياطية» في الساعات التي أعقبت الاشتباكات العنيفة بين القوتين.

3. جاءت نقطة التحول في هذا العمل بعد الساعة 16:00، حيث بدأت مجموعة من حوالي 100 من رجال القبائل في التقدم من "العيمه» إلى الشمال، وهاجمت الجناح الأيمن والخلفي التركي، وحوالي الساعة 16:20، شن الأمير "راسم" هجومًا إضافياً على الجناح، وشن هجوماً واسعاً على اليسار التركي، بينما تبع لورنس ذلك على الفور بهجوم أمامي، وفي مواجهة الهجمات من ثلاث جهات، فقدت القوة التركية تماسكها وبدأت تتراجع على طول طريق الكرك.

على الرغم من هذه التطورات الإيجابية، وجد لورنس أيضاً ازدياداً في استياء القادة العرب، حيث كشفت الحكومة البلشفية الجديدة في روسيا التفاصيل الكاملة لاتفاقية سايكس بيكو، ووجد أن تأكيداته لم تلق آذاناً صاغية، وتضاعفت هذه الصعوبات بسبب وعد بلفور في تشرين الثاني (نوفمبر) 1917، الذي وعد بوطن لليهود في فلسطين، وازداد التنافر في الجيش العربي، ومع هذه الصعوبات، قدم "جمال باشا" عروض للقادة العرب ووعدهم بالمال والعفو، حيث تم العثور على قطار تركي نُصب له كميناً شمال العلا في تشرين الثاني (نوفمبر) وكان يحمل أكثر من 24000 جنيه إسترليني من الذهب، وكان لورنس يخشى أن يكون الهدف منه إعادة شراء القادة العرب.

وبعد سلسلة من اللقاءات الصعبة، حاول لورنس طمأنة فيصل، وتم الاتصال بالشريف حسين، وتم تعويض الشكوك العربية إلى حد ما من خلال نشر خطاب الرئيس "وودرو ويلسون" «النقاط الأربع عشرة» في 8 يناير 1918، والذي وعد بأن «الجنسيات الأخرى التي تخضع الآن للحكم التركي يجب أن تضمن أمناً للحياة وفرصة للتنمية المستقلة، وقد كان تأكيداً نبيلاً بالفعل، وتمسك به القادة العرب لما تبقى من الحرب، وعلى الرغم من ذلك، كان لورنس يعرف في نفسه أن هذه الوعود سوف يتم تجاوزها بأحكام سايكس بيكو.

مع اقتراب الحرب من نهايتها، سيجد لورنس إحساسه بالنزاهة يتآكل تدريجياً، وسيتفاقم هذا الشعور في سنوات ما بعد الحرب مباشرة، حيث وجد لورنس نفسه مسؤولاً عن جزء متزايد الأهمية من الحرب في الشرق الأوسط، وفي أواخر عام 1917، جرب هو والكولونيل "جويس" استخدام السيارات المدرعة وسيارات تالبوت في تنفيذ سلسلة غارات على سكة حديد الحجاز، كما أبدى لورنس إعجابه بالحماية التي توفرها العربات المدرعة، وأدرك أنه يمكن استخدامها للهجوم على المواقع التركية التي تصلح عمليات الهدم على السكك الحديدية.

وصف لورنس الهجوم على سكة حديد الحجاز شمال المدورة في 1 يناير 1918:

"بدأت بطاريات الأسلحة بالعمل، وبحماس مباشر انطلقت السيارات المدرعة الثلاث بهدوء عند قضبان القطار التركية مثل الكلاب الكبيرة التي تمشي وراء الأثر. اطَّلع جنود العدو ورفعوا رؤوسهم لينظروا، كان كل شيء هادئاً للغاية، حتى دارت السيارات وبدأنا برش الخنادق، ثم أدرك الأتراك أنه هجوم، فانبطحوا خلف تجهيزاتهم وأطلقوا النار على السيارات، وكانت طلقاتهم ضعيفة مثل محاولة قتل وحيد القرن بطلقة خرطوش".



خلال الأشهر الأولى من عام 1918، ناقش لورنس واللنبي الدور المستقبلي للجيش العربي في الحملة القادمة، والتي كان من المتوقع أن تكون حاسمة، فقد استولت قوة عربية على الطفيلة في 16 يناير 1918، وهي بلدة مهمة في مرتفعات زراعة القمح إلى الشرق من البحر الميت، وتوقع الجميع أن ترتبط القوات البريطانية في النهاية بالجيش العربي وتشكل خطاً واحداً متواصلاً من البحر إلى نقطة وراء نهاية الجناح الأيسر التركي، وإذا أمكن تحقيق ذلك، كان اللنبي واثقاً أنه سيستطيع إمداد قوات العرب بشكل مباشر ولن يتعين عليه الاعتماد على طريق الإمداد الحالي الذي يمر بالعقبة.



الجنرال السير إدموند اللنبي، قائد قوة المشاة المصرية من يونيو 1917. سعى لورنس لتنفيذ هجمات على القوات التركية خلال عام 1918؛ في محاولة لتشتيت انتباههم بينما شَنَّ اللنبي هجمات أخرى كبيرة.

في نهايـة المطـاف، لـن يتحقـق هـذا السـيناريو أبـداً في عـام 1918، فالتضاريـس التـي لـم تشـمل البحـر الميـت فحسـب، بـل شـملت أيضـاً الجبـال وبحيـرة طبريـة، عملــت على فصــل القوتيــن، بينمــا أحبطــت الهجمــات المضــادة التركيــة أيضــاً تخطيطـات اللنبــي.

طـرح الاحتفـاظ بالطفيلـة مشـكلة فوريـة كمـا حـدث في الآونـة الأخيـرة في ينايـر 1918، حيـث سـار لـواء تركـي جنوبـاً مـن الكـرك لاسـتعادة المدينـة، ووجـد لورنـس نفسـه مـع 600 مـن رجـال القبائـل فقـط في مواجهـة قـوة تركيـة قوامهـا حوالـي 1000 رجـل، تتألـف مـن مشـاة وسـلاح فرسـان ومدفعيـن جبلييـن وأكثـر مـن 20 رشاشـاً ورشاشـاً خفيفـاً، وبعـد بعـض المناوشـات، تطـورت المعركـة الرئيسـية خـلال 25 ينايـر، حيـث تقدمـت القـوات التركيـة وانتشـرت على سلسـلة مـن خطـوط التلال، وبعـد أن أجبـرت المجموعـات المتقدمـة العربيـة على التراجـع، بـدا مـن المؤكـد أنهـا ستسـتعيد المدينـة، فاندلعـت اشـتباكات بيـن المواقـع العربيـة والتركيـة اسـتمرت أكثـر مـن سـاعتين، وأخيـراً حُسـمت المعركـة بسلسـلة مـن الالتفاتـات بواسـطة الفرسـان العـرب. بعـد ذلـك، قـاد لورنـس فرقتـه إلـى الأمـام في هجـوم أمامـي، وتفككـت القـوة التركيـة وهربـت.

كانـت معركـة الطفيلـة قصيـرة نسـبياً ومربكـة، لكنهـا أثبتـت أن القـوات العربيـة غيـر النظاميـة أصبحـت الآن واثقـة بمـا يكفـي لمواجهـة القـوات التركيـة في معركة مفتوحـة، وأسـفر ذلـك عـن أسـر أكثـر مـن 250 جنديـاً تركيـاً واغتنـام بنادقهـم الجبليـة.

حصـل لورنـس على (وسـام الخدمـة المتميـز) بفضـل قـوة تقريـره الخـاص عـن المعركـة، والـذي تحـدث عنـه لاحقـاً ببسـاطة: "أثنـاء المعركـة لـم نلتـزم بقوانيـن الحـرب النظاميـة. وقـد أعجبـت القيـادة بذلـك كثيـراً، وقدمـت لـي وسـاماً مكافـأة على جدارتـي في المعركـة. يجـب أن يكـون لدينـا المزيـد مـن الوحـوش في الجيـش يسـتطيعون فعـل مـا يحلـوا لهـم دون وجـود أي شـهود».

الأشـهر التـي تلـت ذلـك كانـت محبطـة إلـى حـد مـا للورنـس، حيـث تـم إحبـاط خططـه بطـرق مختلفـة. بعـد الطفيلـة مباشـرة، اكتشـف اختفـاء مبلغ 30 ألـف جنيه إسـترليني كان قـد منحـه للأميـر زيـد لرفـع الضرائـب القبليـة، ولكـن زيـد قـد صرفهـا للأصدقـاء والعائلـة، وخـاب أملـه تمامـاً في هـذا الوقـت، وأبلـغ لورنـس القاهـرة أن «هـؤلاء العـرب في الغالـب لا يصلحـوا لأي عمـل"، وتـلا ذلـك المزيـد مـن الإحباطـات التكتيكيـة، حيـث فشـلت محاولـة الاسـتيلاء على معـان في أبريـل، واسـتقرت قـوات الجيـش العربـي النظامـي في حصـار سيسـتمر حتـى 23 سـبتمبر. وفي أبريـل أيضـاً، فشـلت الجهـود البريطانيـة الرئيسـية ضـد عمـان، وشـنت سلسـلة مـن الغـارات على سـكة حديـد الحجـاز في مايـو، لكـن الهجمـات المتكـررة على المـدورة فشـلت في الاسـتيلاء عليهـا، لكـن في 8 أغسـطس 1918 تـم الاسـتيلاء على المحطـة الحيويـة مـن قبـل قـوات فيلـق الجمـال الإمبراطـوري، ممـا أدى في النهايـة إلـى قطـع حركـة السـكك الحديديـة المتجهـة جنوبـاً إلـى المدينـة المنـورة.



تـم الاسـتيلاء على بنـادق تركيـة في الطفيلـة في ينايـر 1918، حيـث كانـت مسـرحاً لانتصـار كبيـر للقـوات العربيـة بقيـادة لورنـس، كمـا صـدوا تقـدم لـواء تركـي، وهزمـوا تشـكيله.

كان كل مـن لورنـس واللنبـي يأمـلان في أن يـؤدي الضغـط المشـترك على الخـط التركـي إلـى انهيـار نهائـي في غضـون بضعـة أشـهر، كمـا خطـط اللنبـي لمحاولـة شـق طريقـه عبـر الخـط التركـي على جبهـة ضيقـة في مجيـدو (انظـر الحملـة 61: مجيـدو 1918)، وبعـد أن خـرق الخـط، اسـتغل نجاحـه مـن خـلال اسـتغلال حركـة فيلـق الصحـراء، كمـا لعبـت القـوة الجويـة دوراً حاسـماً، وتـم تكليـف طائـرات سـلاح الجـو الملكـي البريطانـي بقصـف الطـرق والتقاطعـات وأماكـن التجمـع بينمـا يهاجـم أيضـاً القـوات التركيـة على الأرض.

كان الجيـش العربـي الشـمالي جـزءاً أساسـياً مـن خطـة اللنبـي، وقـد زُود لورنـس بأكثـر مـن 1500 جمـل لنقـل جـزء كبيـر مـن الجيـش العربـي مـن العقبـة. وفي بدايـة سـبتمبر 1918، جمـع لورنـس وفيصـل في البدايـة كتيبـة صغيـرة مـن جيـش الشـمال العربـي، ولكنهـا كانـت سـريعة الحركـة، واتجهـوا إلـى الشـرق مـن درعـا في منطقـة المتاعيـة، لكنهـم انتقلـوا لاحقـاً إلـى أم سـراب لتجنـب انتبـاه الطائـرات التركيـة التـي كانـت تعمـل في درعـا، كمـا شـمل الجيـش أيضـاً كتيبـة مـن القـوات النظاميـة العربيـة وكذلـك وحـدةً متنقلـةً مـن العربـات المدرعـة وبطاريـة تالبـوت، وتـم تزويـد هـذه القـوة بفـرق مـن المدافـع الرشاشـة جورخـا، وبطاريـة مدافـع جبليـة وكذلـك سـرية مـن فيلـق الإبـل.

واسـتطاع لورنـس أيضـاً جمـع أكثـر مـن 500 رجـل مـن رجـال القبائـل تحـت قيادتـه الشـخصية بمـا في ذلـك الحويطـات، وبنـي شـاكر، والرولـة، والعجيـل، وغيرهـم، ورافقـت هـذه القـوة طائـرة تابعـة لسـلاح الجـو الملكـي البريطانـي مـن نـوع بريسـتول إف 2، والتـي اسـتخدمت المطـارات المؤقتـة للدعـم.



طائرة بريستول إف 2



معركة الطفيلة في 25 يناير 1918

عـادة مـا يرتبـط لورنـس بحملـة حـرب العصابـات التـي شـنها ضـد سـكة حديـد الحجـاز، لكنـه قـاد في عـدد مـن المناسـبات القـوات العربيـة في عمليـات تقليديـة ضـد القـوات التركيـة. ويعـد أحـد الانتصـارات الأكثـر إثـارة للإعجـاب للجيـش العربـي ذلـك الـذي حـدث في الطفيلـة، في الأردن حاليـاً، في ينايـر 1918، حيـث واجهـت قـوة قوامهـا حوالـي 600 مـن رجـال القبائـل بقيـادة لورنـس والأميـر زيـد لـواءً تركيـاً كان متفوقـاً في عـدد الرجـال والرشاشـات والمدفعيـة. ودارت هـذه العمليـة بيـن سلسـلة مـن التـلال، واسـتمر اشـتباك عنيـف بيـن القـوات العربيـة والتركيـة لمـدة سـاعتين تقريبـاً.

قلـل لورنـس لاحقـاً مـن دوره في هـذا العمـل، لكـن مـن المؤكـد أنـه لعـب دوراً نشـطاً في القتـال، حيـث يظهـر هنـا مسـلحاً ببندقيـة SMLE، وهـو سـلاح اسـتخدمه عـدة مرات خـلال الحملـة، وخـلال المعركـة، اسـتفادت القـوات العربيـة مـن مدافعهـا الرشاشـة، والتـي تضمنـت مدافـع فيكـرز ولويـس وهوتشـكيس. كمـا تواجـد في الطفيلـة بعـض الضبـاط بالـزي الرسـمي للجيـش العربـي النظامـي.

كان لورنس قد وافق على برنامج منسق للهجمات مع اللنبي، لتركيز الهجمات على سكة حديد الحجاز والأرتال التركية، وكان من المأمول أن يسبب ذلك ارتباكاً في اليسار التركي، بحيث يُبقي القادة الأتراك غير متوازنين، مما سيساهم في الانهيار النهائي لتماسك العدو.

في مقدمة الهجوم الرئيسي، بدأ لورنس وقواته بمهاجمة سكة الحديد في 16 سبتمبر 1918، وقاموا بعدد من الغارات شمال وجنوب درعا بدعم من سرب السيارات المدرعة. بدأ الهجوم الرئيسي في 19 سبتمبر، وفي ذلك الوقت قطعت قوات لورنس خط السكة الحديدية، وعزلت درعا بشكل فعال، إلا أن قوة لورنس تعرضت أيضاً في مناسبات مختلفة لغارات من الطائرات التركية والألمانية، بالإضافة إلى القوات التركية بالميدان، ولا سيما فيلق الإبل التركي. بدأ الزخم المشترك لهجوم اللنبي وهجمات لورنس يؤثر في تآكل التماسك التركي، وبدأت القوات في الانسحاب سيراً على الأقدام من درعا في الأيام التي تلت ذلك.

ربما حصل بعد ذلك الحدث الأكثر إثارة للجدل في تجربة لورنس خلال الحرب: في 27 سبتمبر، انسحب رتل مكون من حوالي 2000 جندي تركي (بما في ذلك 250 جندياً ألمانياً ونمساوياً) من مزريب ومر عبر قرية طفس، فقاموا بمذبحة في حق سكان القرية. فجاء لورنس الذي كان يقود قوته المكونة من رجال القبائل، وأمر بالهجوم على الرتل، وذكر لاحقاً أنه أصدر أمراً «بعدم أخذ أي أسير"، ولا تزال الأحداث التي تلت ذلك غير مؤكدة، لكن المؤكد أن رجال القبائل العربية قد هاجموا الرتل وقتلوا غالبية الجنود الأتراك. كتب لورنس في وقت لاحق في أعمدة الحكمة السبعة أن هذا للانتقام كان لمذبحة طفس: «في جنونٍ وُلد من رعب مجزرة طفس، قتلنا وقتلنا، بل وقطعنا رؤوس القتلى والحيوانات». ويبدو أيضاً أن حوالي 250 جندياً، بمن فيهم الألمان والنمساويين قد استسلموا بالفعل، لكن أمر لورنس "أرني" بأن يقتلهم جميعاً بالرشاشات.

لا تزال دوافع لورنس في هذه الإجراءات موضع نقاش، ولكن يبدو، مثل العديد من رجال جيله، أن سنوات الحرب قد أكلت إنسانيته، وبعد أن شهد مذابح الرجال والنساء والأطفال في طفس؛ لم يتردد في قتل الجناة، ومع انهيار المقاومة

التركيـة، تكـررت مشـاهد مماثلـة مـع تقـدم القـوات البريطانيـة والعربيـة، وخـلال تلـك الأسـابيع الأخيـرة مـن أكتوبـر 1918، تفككـت القـوة العثمانيـة في أراضيهـا السـابقة في سـوريا، لكـن مـع ذلـك حافظـت على مسـتوى مـن التماسـك على الرغـم مـن الارتبـاك الـذي أصبحـت فيـه، وخـاض لورنـس وقواتـه القبليـة سلسـلة مـن المواجهـات حيـث دفعـوا الأتـراك شـمالاً، وانضـم إليهـم عناصـر مـن فرقـة الفرسـان الرابعـة والخامسـة، وبـرزت حركـة هـذه التشـكيلات في الصـدارة خـلال الأحـداث النهائيـة.



لورنـس المرهـق على شـرفة فنـدق في دمشـق بعـد الاسـتيلاء على المدينـة في أكتوبـر 1918. شـهد لورنـس إحبـاط التطلعـات العربيـة للاسـتقلال وغـادر الشـرق الأوسـط بعـد ذلـك بوقـت قصيـر.

استسـلمت القـوات التركيـة بـالآلاف مـع انهيـار القيـادة التركيـة؛ حيـث كان هجـوم اللنبـي على مجيـدو ناجحـاً تمامـاً، فقـد احتلـت رجـال القبائـل العربيـة وسـلاح الفرسـان البريطانـي والأسـترالي دمشـق في 1 أكتوبـر 1918، كمـا سـقطت حلـب في أيـدي القـوات العربيـة في 26 أكتوبـر، واسـتولت القـوات العربيـة والبريطانيـة على تقاطـع السـكك الحديديـة الحيـوي عنـد المسـلمية في 29 أكتوبـر، وأدى الاسـتيلاء

على هـذا التقاطـع إلـى قطـع خـط السـكك الحديديـة التركيـة إلـى بـلاد مـا بيـن النهريـن، كمـا رفعـت الدولـة العثمانيـة دعـوى قضائيـة مـن أجـل السـلام ومنحـت هدنـة في 31 أكتوبـر، وبذلـك انتهـت الحـرب في الشـرق الأوسـط.

كانـت حـرب لورنـس قـد انتهـت فعليـاً عندمـا وصـل دمشـق في 1 أكتوبـر، واسـتمر رجـال قبيلتـه في مضايقـة الأتـراك المنسـحبين لكنـه تركهـم ودخـل دمشـق، حيـث سـافر في سـيارة رولـز رويـس أطلـق عليهـا اسـم «بلـو ميسـت»، وسـكن في فنـدق فيكتوريـا، وكان مرهقـاً جسـدياً وعاطفيـاً.

دمشـق، المدينـة التـي كان يتـوق للوصـول إليهـا، كانـت في حالـة يرثى لها، وانتشـرت الفوضـى في الشـوارع وتعطلـت الخدمـات الأساسـية. وأثنـاء زيارتـه للمستشـفى التركـي؛ وجـد المرضـى المهجريـن والمصابيـن بحالـة يرثـى لهـا، وقـام ضابـط طبـي بضـرب لورنـس على وجهـه، واصفـاً إيـاه بـ «الوحـش الدمـوي»، وقـد كتـب لورنس في وقـت لاحـق أنـه «قـد شـعر في نفسـه أن الضابـط كان على حـق».

كان الابتهـاج للمنتصريـن في دمشـق مناقضـاً بشـكل صـارخ لمشـاعر لورنـس الشـخصية. وفي اجتمـاع متوتـر في 3 أكتوبـر، أبلـغ اللنبـي فيصـل أنـه لـن يُسـمح لـه بـأن يصبـح ملـكاً على سـوريا، وأنـه سـيحكمها الفرنسـيون بموجـب شـروط اتفاقيـة سـايكس بيكـو، وهـذا مـا جـرد فيصـل ولورنـس على حـد سـواء مـن أوهـام الاسـتقلال وبشـكل حاسـم.



الأميـر فيصـل مغـادراً فنـدق فيكتوريـا في دمشـق في 3 أكتوبـر 1918، بعـد أن أبلغـه الجنـرال اللنبـي أنـه لـن يُسـمح لـه بحكـم سـوريا، والتـي تـم التنـازل عنهـا لفرنسـا بموجـب شـروط اتفاقيـة سـايكس بيكـو.

رسم "جيمس ماكبي" صورة للورنس في هذا الوقت في جلسة واحدة، وسجل لاحقاً أن القادة العرب قد جاءوا لتوديع لورنس وهو جالس في غرفته بالفندق، وقبلوا يده قبل أن يرحل لورنس لإجازته. تُظهر الصور الفوتوغرافية في هذا الوقت لورنس وهو منهك بعد الاجتماع مع فيصل (انظر الحملة 202: الثورة العربية 1916-18)، وحصل لورنس على إذن من اللنبي للمغادرة، وهو يسجل:

"عندما رحل فيصل، قدمت إلى اللنبي آخر طلب (وأعتقد أيضًا أنه الأول) إجازة للذهاب بعيداً. لفترة من الوقت لم يكن ليوافق اللنبي. لكنني عللت له، وذكّرته بوعده الذي وعدني إياه من عام، وأوضحت له أن القانون الجديد سيكون أسهل بكثير إذا غبت عن الناس، وفي النهاية وافق. ثم عرفت على الفور كم كنت آسفاً».

غادر لورنس دمشق في اليوم التالي، وعاد إلى القاهرة بحلول 8 أكتوبر 1918. وبعد أن كان قد ترك تلك المدينة وهو ملازم عام 1916، ها هو يعودها إليها الآن كعقيد كامل مع وسام الخدمة المتميز ووسام الشرف. أوصى الجنرال اللنبي بمنح لورنس وسام الفروسية، وعلى الرغم من مظاهر النجاح هذه، فمن المؤكد أن نتيجة الثورة كانت بمثابة خيبة أمل عميقة له، وكما كتب لاحقاً، فقد رأى «أحلامه انطفئت مثل الشموع، في رياح النجاح القوية».

الحملة الأخيرة، من 16 سبتمبر إلى 28 أكتوبر 1918



بـدأت المرحلــة الأخيــرة مــن حملــة الجنــرال اللنبــي فــي الشــرق الأوســط فــي 16 ســبتمبر 1918 مــع بدايــة هجــوم جديــد. لعــب جيــش الشــمال العربــي بقيــادة فيصــل ولورنــس دوراً حاســماً فــي مهاجمــة ســكة حديــد الحجــاز والضغــط باســتمرار علــى الجنــاح الأيســر التركــي، كمــا اســتمروا فــي التحــرك شــمالاً خــلال أســابيع قليلــة دراميــة بينمــا تراجــع الجيــش التركــي.

1. فــي المرحلــة الافتتاحيــة لهجــوم جيــش العــرب الشــمالي (يبلــغ عددهــم حوالــي 1000 رجــل) كان متمركــزاً فــي المتاعيــة، ونفــذ غــارات علــى الســكك الحديديــة فــي16 ســبتمبر، قبــل شــن الهجــوم الرئيســي فــي 19 ســبتمبر (هجــوم مجيــدو).



2. فــي 27 أيلــول / ســبتمبر، هاجمــت قــوة لورنــس ودمــرت قــوة تركيــة منســحبة فــي طفــس، وســقطت بلــدة درعا فــي وقــت لاحــق مــن ذلــك اليــوم.

3. واصلــت القــوات العربيــة بالتعــاون مــع فرقــة الفرســان الرابعــة مطــاردة القــوات التركيــة المنســحبة باتجــاه دمشــق، التــي تــم الســيطرة عليهــا فــي 1 أكتوبــر.

4. فــي الأســابيع التــي تلــت ذلــك، تراجعــت القــوات العثمانيــة وتبعهــا شــمالاً جيــش الشــمال العربــي وفرقــة الفرســان الرابعــة والخامســة، كمــا نفــذت طائرات ســلاح الجــو الملكــي البريطاني سلســلة مــن الهجمــات المدمــرة علــى الأرتــال التركيــة المنســحبة، ثــم وصلــت القــوات العربيــة والبريطانيــة إلــى حلــب فــي 26 أكتوبــر ووقعــت الحكومــة العثمانيــة هدنــة بعــد خمســة أيــام.

القادة المعارضون

أحد الجوانب المثيرة للدهشة في تاريخ الثورة العربية هو أنه لم يكن هناك سوى القليل من الاهتمام بالجيش العثماني وقادته خلال تلك الحملة، والأدبيات حول هذا الموضوع في اللغة الإنجليزية محدودة للغاية، على الرغم من أن كتاباً عن التاريخ العسكري للعثمانيين: من عثمان إلى أتاتورك (2009) لمسعود أويار وإدوارد جيه إريكسون قد قطع شوطاً ما في إصلاح هذا الخلل. يذكر لورنس العديدَ من القادة العثمانيين في أعمدة الحكمة السبعة، ويقر بشكل عام أن لديهم مواهب، وكانوا يعملون إلى أقصى حد، ولكن الإمكانيات العسكرية المتضائلة لم تساعدهم.

كما يجب أن يقال أنه بسبب الطبيعة الغير متماثلة للحملة التي شنها؛ لم يشترك لورنس مع القوات العثمانية في معركة تقليدية. وللحصول على بعض الفهم لنوعية المواجهة التي خاضها، يجب على المرء أن يفكر أن القادة العثمانيين في الحقيقة كانوا يخوضون حرب مكافحة التمرد. وتجدر الإشارة أنه من غير المحتمل أن يكون كبار القادة العثمانيين على علم بوجود لورنس، ربما عرفوا فقط أنهم كانوا يواجهون تمرداً عربياً، وأن هذا كان بمساعدة ضباط الحلفاء وكمية متزايدة من معدات الحلفاء، كما عرف القادة العثمانيون أن الغارات تحت قيادة الضباط العرب والحلفاء كانت تستهدف خط اتصالهم الرئيسي، لكنهم لم يحددوا ضابطاً واحداً على أنه القوة الدافعة وراء ذلك. وبالمثل، فإن فكرة أن القيادة العليا التركية قد وضعت ثمناً على رأس لورنس هي أسطورة كاملة.

فيما يتعلق بمسؤوليات القيادة، حدثت الثورة العربية في الأراضي الواقعة تحت سيطرة أحمد جمال باشا (بويوك 1)، وكان هذا الجندي ورجل الدولة الطموح شخصيةً بارزة في لجنة الاتحاد والترقي. تخرج جمال باشا من المدرسة الثانوية العسكرية عام 1890، ومن الأكاديمية العسكرية الإمبراطورية (مكتب حربية) عام 1893، وتم تكليفه برتبة ملازم، ثم تم اختياره للالتحاق بكلية الأركان التي تخرج منها في عام 1896 كقائد أركان الشعبة.

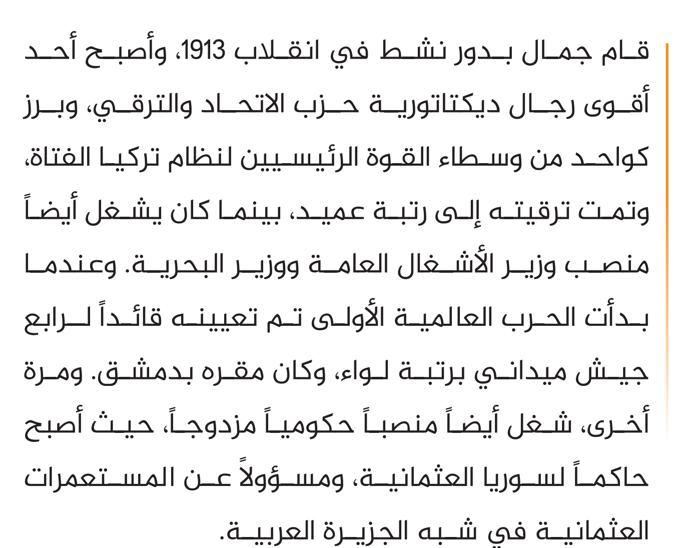


أحمد جمال باشا (بويوك)، حاكم سوريا العثمانية وقائد الجيش الميداني الرابع. كان جمال باشا جنرالاً ماهراً وسياسياً، وكان هو المسؤول عن الحملة ضد لورنس والجيوش العربية.

بعد ثورة تركيا الفتاة عام 1908، تبوأ جمال باشا مكانة بارزة كحاكم عسكري لمدينة إسطنبول، واعتُبر خبيراً في الأمن الداخلي، وتم تعيينه حاكماً لمحافظة أضنة خلال التمرد الأرميني عام 1909. أما كقائد ميداني فقد كان جمال أقل ثقة بنفسه، ولم تكن فترة عمله كقائد فرقة خلال حروب البلقان مبشرة بالنجاح.



صورة جمال باشا



قام جمال بدور نشط في انقلاب 1913، وأصبح أحد أقوى رجال ديكتاتورية حزب الاتحاد والترقي، وبرز كواحد من وسطاء القوة الرئيسيين لنظام تركيا الفتاة، وتمت ترقيته إلى رتبة عميد، بينما كان يشغل أيضاً منصب وزير الأشغال العامة ووزير البحرية. وعندما بدأت الحرب العالمية الأولى تم تعيينه قائداً لرابع جيش ميداني برتبة لواء، وكان مقره بدمشق. ومرة أخرى، شغل أيضاً منصباً حكومياً مزدوجاً، حيث أصبح حاكماً لسوريا العثمانية، ومسؤولاً عن المستعمرات العثمانية في شبه الجزيرة العربية.

خلال السنوات الأولى من الحرب، أشرف جمال على القمع ضد القوميين السوريين. وبين عامي 1914 و1916، قام بتنظيم حملة اعتقالات للقوميين السوريين من حركة الفتاة، وهي العملية التي أثرت على اندلاع الثورة العربية، كما كان طموحاً للغاية، وقد برع في ألعاب القوة السياسية في تلك الفترة المضطربة، وأمر وحكم بشكل مستقل هذه المنطقة خلال الحرب. وفي عام 1915 كان مسؤولاً عن الهجوم العثماني الفاشل ضد السويس. لكن بالرغم من هذا الفشل، فلقد واجه بشكل فعال التقدم البريطاني التدريجي عبر سيناء لداخل فلسطين.

أدى اندلاع الثورة العربية عام 1916 ؛إلى مزيد من التحديات العسكرية لأحمد جمال باشا، وقد دفعه ذلك إلى الامتناع عن الانسحاب من شبه الجزيرة العربية، وقد شرع في محاولة سحق هذا التمرد مع الحفاظ أيضاً على القوات، كما اختار كل من محمد جمال باشا (كوجك 2) وعمر فخر الدين باشا (تركان) للخدمة في هذه الحملة، وكان اختياراً حكيماً حيث عملوا بفعالية ضد القوات العربية حتى عام 1918.

فقدَ أحمد جمال باشا هيمنته المحلية عام 1918 مع وصول الجنرال الألماني فون فالكنهاين، وخسارة فريق عمل جيشه يلدريم منطقة عملياته على حساب الألمان. غالباً ما يتم مناقشة ما إذا كان الإصرار على إبقاء القوات العثمانية في شبه الجزيرة العربية قد أثر سلباً على نتيجة



أحمد جمال باشا (كوجك). عُرف هذا الجنرال العثماني بـ "جمال الأصغر" لتمييزه عن قائده الكبير الذي يحمل نفس الإسم. تم تصويره هنا مع أطفاله في القدس عام 1917، وكان يقود أول طاقم القوات (Kuvve-i-Mürettebe)، التي كان مقرها في معان ولعبت دوراً رئيسياً في العمليات ضد الثورة العربية. (مكتبة الكونغرس، واشنطن)

الحملـة في فلسـطين، وإن كان إجـلاء جمـال للقـوات العثمانيـة مـن شـبه الجزيـرة العربيـة سـيعزز جيشـه الميدانـي الرابـع. ومـع ذلـك، كان جمـال يـدرك أن الانسـحاب مـن شـبه الجزيـرة العربيـة سـيؤدي إلـى نهايـة السـلطة العثمانيـة هنـاك، وكان هـذا مرفوضـاً بالنسـبة لـه، حيـث كان دائمـاً يراعـي التداعيـات السياسـية لهـذا الأمـر. تآمـر جمـال فيمـا بعـد ضـد أنـور باشـا، وبعـد الحـرب ذهـب إلـى كل مـن روسـيا وأفغانسـتان، ثـم اغتيـل على يـد مسـلحين أرمـن في 22 يوليـو 1922.

تقـع بلـدة معـان الموجـودة بـالأردن حاليـاً في منطقـة هامـة على سـكة حديـد الحجـاز، ومـع اشـتداد الحملـة ضـد السـكك الحديديـة، أصبحـت معـان مركـزاً رئيسـياً للعمليـات العثمانيـة، ولعـب القائـد العثمانـي هنـاك محمـد جمـال باشـا (كوجـوك) دوراً رئيسـياً في العمليـات ضـد الثـورة العربيـة، حيـث كان يسـعى لإبقـاء خط السـكة الحديديـة مفتوحـاً للسـماح بإعـادة إمـداد الحاميـة جنوبـاً في المدينـة المنـورة.

تخـرج محمـد جمـال باشـا مـن الأكاديميـة العسـكرية الإمبراطوريـة عـام 1895، وتـم تكليفـه برتبـة مـلازم أول، ثـم تـم اختيـاره لاحقـاً لتدريـب الأطقـم، كمـا تخـرج مـن الكليـة عـام 1898 كقائـد عـام للشـعبة، واكتسـب خبـرة واسـعة في الخدمـة في أركان مختلفـة مـن الإمبراطوريـة العثمانيـة كضابـط شـاب مـن هيئـة الأركان العامـة، وأظهـر حماسـة شـديدة ضـد المتمرديـن الأكـراد في ديرسـم (شـرق الأناضـول)، فتـم تقليـده بوسـام، واتضـح أنـه موهـوب بنفـس القـدر في البعثـات الدبلوماسـية، وخـدم في لجـان مختلفـة لحـل النزاعـات الحدوديـة، وكان أحـد قـادة الفـرق القلائـل الذيـن خرجـوا مـن حـروب البلقـان وسـمعته سـليمة.

عنـد انـدلاع الحـرب العالميـة الأولـى تمـت ترقيـة محمـد جمـال إلـى رتبـة عميـد، وتولـى قيـادة الفيلـق الثامـن للجيـش الـذي كُلـف بمهاجمـة قناة السـويس عـام 1915. أصبحـت حياتـه المهنيـة اللاحقـة في زمـن الحـرب صعبـة بسـبب أسـلوب القيـادة شـديد المركزيـة لأحمـد جمـال باشـا (بويـوك). وهـذا هـو السـبب الـذي جعلـه يُعـرف بيـن إخوتـه الضبـاط باسـم «كوجـوك جمـال باشـا"، حرفيـاً «جمـال الأصغـر"، على الرغـم مـن أنـه لا يشـبه.

مـن خـلال مقـره الرئيسـي في معـان، قـاد محمـد جمـال أول طاقـم القـوات (Kuvve-i-Mürettebe)، وهـي قـوة مختلطـة عاليـة الحركـة تعمـل ضـد القـوات

العربيـة في الصحـراء، كمـا كان يقـع على عاتقـه إنشـاء حاميـة على طـول سـكة حديـد الحجـاز وإصـلاح أي أعمـال هـدم داخـل منطقـة عملياتـه. وبالفعـل؛ نفـذ محمـد جمـال باشـا هـذه المهـام بفعاليـة، حيـث كشـفت الحفريـات الأثريـة الأخيـرة أن معـان كانـت محميـة بشـبكة مـن التحصينـات المتقنـة، ودافـع محمـد عـن معـان ضـد هجـوم كبيـر شـنته قـوات الجيـش العربـي النظامـي ورجـال القبائـل في أبريـل 1917 ولـم يتـم إخـلاء المدينـة حتـى سـبتمبر 1918.

طـوال فتـرة قيادتـه في معـان، اسـتخدم محمـد أسـلحته الجويـة المحـدودة بشـكل فعـال للغايـة، وكان يقـوم بهجمـات جويـة على القاعـدة العربيـة في العقبـة بانتظـام. وفي وقـت لاحـق مـن الحـرب، وجـد دوره يتضـاءل خـلال حملـة فلسـطين بسـبب وجـود ضبـاط ألمـان مثـل كريـس فـون كريسنشـتاين، ثـم تـم تعيينـه أخيـراً كقائـد عـام للجيـش الرابـع الميدانـي (بعـد إعفـاء بويـوك جمـال باشـا) في 17 ينايـر 1918، كمـا تمـت ترقيتـه إلـى رتبـة لـواء في يوليـو.

ربمـا كان أشـهر قائـد عثمانـي خـلال الثـورة العربيـة هـو عمـر فخـر الديـن باشـا (تـركان)، الـذي قـاد حاميـة المدينـة المنـورة خـلال الثـورة العربيـة، وفي المصـادر باللغـة الإنجليزيـة غالبـاً مـا يشـار إليـه باسـم فخـر الديـن أو فخـري باشـا. ولـد هـذا القائـد في روسـه في بلغاريـا العثمانيـة عـام 1868، وكان قـد مـر أيضـاً عبـر الإمبراطوريـة الأكاديميـة العسـكرية وكليـة الأركان، وتخـرج مـن كليـة الأركان عـام 1891 كقائـد عـام للشـعبة.

خـدم فخـر الديـن في حاميـات في أماكـن مختلفـة مـن الإمبراطوريـة العثمانيـة كضابـط أركان شـاب، بالإضافـة إلـى وظائـف الموظفيـن العاديـة والقيـادة الميدانيـة، كمـا خـدم في العديـد مـن لجـان النـزاع الحدوديـة، وكان سـجله في حـروب البلقـان غيـر مميـز، لكـن في بدايـة الحـرب العالميـة الأولـى تولـى قيـادة الفرقـة، وتـم تعيينـه لقيـادة الفيلـق الثامـن عشـر للجيـش، بينمـا كان يشـغل أيضـاً منصـب القائد الثانـي للجيـش الميدانـي الرابـع، وبهـذه الصفـة عمـل نائبـاً لجمـال باشـا بويـوك.


صورة فخر الدين باشا

كان تعيين عمر فخر الدين باشا للقيادة في المدينة المنورة في آخر لحظة، لكن هذا التعيين أثبت أنه كان مناسباً للغاية، فبعد اندلاع الثورة، قام بتنظيم دفاعات المدينة وشرع على الفور بتأمين سكة حديد الحجاز، ثم في أواخر عام 1916 بدأ في سحق التمرد واستعادة مدينتي ينبع ورابغ، فانطلق بقوة مكونة من لواءين وتقدم باتجاه القوات العربية الرئيسية، وكاد أن ينجز هذه المهمة، ويسحق التمرد وهو في بدايته، ولكن وصول القوات البحرية الملكية والقوات المصرية قلب الموازين، كما لعبت العوامل اللوجستية دورها أيضاً، فعاد إلى المدينة المنورة في أوائل عام 1917.

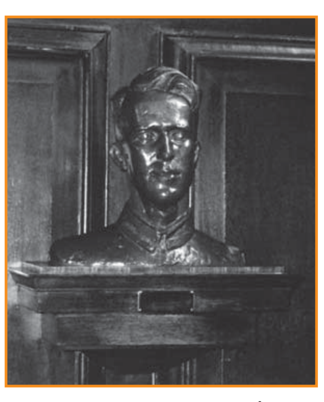
خلال الفترة المتبقية من الحرب، دافع فخري باشا بقوة عن المدينة المنورة، وبذل جهوداً كبيرة لإبقاء خط السكة الحديدية مستمراً، حيث كان ذلك وسيلته الرئيسية للإمدادات والتعزيزات. ومع ذلك، لم يكن معتمداً بالكامل على السكك الحديدية، حيث كان لا يزال يحصل على الإمدادات الغذائية من قبيلة شمر التابعة لابن رشيد الموالية للحكم العثماني.

في حين أن الضباط الثلاثة الموصوفين أعلاه كانوا من كبار القادة العثمانيين في منطقة عمليات لورنس، إلا أنه لم يشتبك معهم بشكل مباشر؛ لأن هذا لم يكن نوع الحرب التي كان لورنس يشنها. لذلك، يمكن القول إن لورنس كان لديه عدد قليل من القادة العثمانيين الذين

واجههم بشكل مباشر، وكانت هذه هي طبيعة حربه، حيث لم يكن مقياس النجاح عنده بالمعايير العسكرية التقليدية، بل كان يسعى إلى تدمير القوة العثمانية من خلال العمل غير النظامي، أما بالنسبة لكبار القادة العثمانيين الموصوفين هنا، فلم يكونوا أبداً في وضع يسمح لهم بمواجهة لورنس بشكل مباشر، لكنهم اهتموا بمحاولة مواجهة الهجمات العربية والتغلب على الأضرار التي لحقت بخط سكة حديد الحجاز.

مثل الكثير من المشاركين في قصة لورنس، الأسماء والصفات من الضباط العثمانيين الذين واجهوا الثورة العربية تم نسيانهم إلى حد كبير مما يمكننا جمعه، ويبدو أنهم كانوا من ذوي الخبرة والذكاء والعناد، وهي صفات كانت مشتركة بين الجنود العثمانيين طوال الحرب العالمية الأولى.

داخل العقل



تمثال نصفي للورنس، نحته إريك كينينجتون. التمثال الأصلي موجود في كاتدرائية القديس بولس في لندن، بينما تم عمل عدة نسخ منه في وقت لاحق، وهذا التمثال موجود في كنيسة جيسوس كوليدج، أكسفورد، حيث كان لورنس طالباً جامعياً.(صورةالمؤلف)

من بدايات غامضة بكل معنى الكلمة، برز لورنس كواحد من الشخصيات المشهورة في القرن العشرين. أما من منظور عسكري بحت، فقد لعب هذا الرجل دوراً رئيسياً خلال الحرب العالمية الأولى، حيث كان لديه فهم مطلق لحرب العصابات، وكان يترجم هذا إلى عمل مناسب، ويعبر عنه بالكلمة المكتوبة.

والحقيقة، كانت كتاباته تمثل دليلاً على دقة نظرياته حول الحرب غير النظامية، كما اندمجت هذه الغريزة مع معرفته بالقبائل والتضاريس في شبه الجزيرة العربية مما ساعده على العمل بنجاح خلال الحرب العالمية الأولى. ونجاحه في العمل في الصحراء بقوات غير نظامية، مدعوماً بالدروع الخفيفة والمدفعية، سيبني عليه مستكشفوا الصحراء خلال عشرينيات وثلاثينيات القرن الماضي، كما سيتم استخدام هذه الأساليب بعد ذلك من قبل القوات الخاصة، مثل مجموعة الصحراء بعيدة المدى[1] و SAS[2] أثناء العمليات الصحراوية في الحرب العالمية الثانية. ونتيجة لذلك، لا يزال لورنس أحد أكثر الشخصيات تأثيراً في حرب العصابات وتطويراً لتكتيكات حرب الصحراء.

1 كانت مجموعة الصحراء بعيدة المدى (LRDG) وحدة استطلاع وإغارة تابعة للجيش البريطاني خلال الحرب العالمية الثانية.

2 قوات الخدمات الجوية الخاصة البريطانية



كانــت حيــاة لورنــس موضوعــاً ملهمــاً للعديــد مــن الفنانيــن. تــم التقــاط هــذه الصــورة بواســطة أوجســتس جــون، وقــد أُكمــل هــذا التمثــال ســنة 1919، وهــو جــزء مــن مجموعــة تيــت (معــرض تيــت، لنــدن)

يتواجـد أدق تلخيـص لفـن الحـرب الخـاص بلورنـس في الفصـل الثالـث والثلاثيـن مـن كتـاب أعمـدة الحكمـة السـبعة، والـذي يصـف كيـف قضـى فتـرة طريـح الفـراش بسـبب المـرض في أوائـل عـام 1917، وخـلال هـذه الفتـرة طـور أفـكاره حـول الكيفيـة التـي يجـب أن تكـون بهـا الحملـة، وقـدر نقـاط القـوة والضعـف التركيـة وقيّـم المزايـا التـي تتمتـع بهـا القـوات العربيـة على الأتـراك، ويحتـوي تقييمـه النهائـي على العديـد مـن المبـادئ التـي لا يـزال يعتـرف بهـا طـلاب الحـرب غيـر المتكافئـة، كمـا رفـض لورنـس العقليـة الهجوميـة التـي اتسـم بهـا القـادة على الجبهـة الغربيـة.

أدرك الأتـراك أنهـم ملزمـون بحمايـة الأراضـي في شـبه الجزيـرة العربيـة، وكذلـك سـكة حديـد الحجـاز، وكانـت المفاضلـة المقابلـة بيـن الأتـراك والقـوات لورنـس تكمـن في الحركـة، حيـث ظـل الأتـراك مقيديـن بخطـوط اتصـال ضعيفـة، بينمـا كان بإمـكان القبائـل العـرب الوصـول إلـى الأماكـن البعيـدة بـكل سـهولة وشـنّ حـربٍ مـن الهجمـات المفاجئـة، وقـد سـمح لهـم الإمـداد المتواضـع مـن المدافـع الرشاشـة والمتفجـرات بزيـادة مزاياهـم.

لخص لورنس بدقة أفكاره:

" كانـت معظـم الحـروب في التاريـخ حـروب اشـتباك مباشـر، وكانـت القوتـان المتقاتلتـان تفضـل تجنـب المفاجـأة التكتيكيـة عبـر اسـتمرار التمـاس مـع العـدو. أمـا نحـن فيجـب أن تكـون حربنـا منفصلـة لا يوجـد فيهـا تمـاس متواصـل مـع العـدو، ويجـب أن نكبـح عنـا العـدو بفـراغ الصحـراء الصامتـة والمجهولـة، بحيـث لا نكشـف عـن أنفسـنا حتـى نهاجـم، والهجـوم يجـب أن يكـون شـكلياً، ليـس موجهـاً ضـده، وإنمـا ضـد مؤنـه؛ لذلـك يجـب ألا نبحـث عـن نقـاط قـوة العـدو أو ضعفـه، بـل عـن أشـد النقـاط حساسـية لديـه».

كقائـد لهـذا النـوع مـن حـرب العصابـات، أدرك لورنـس أيضـاً المزايـا التـي يوفرهـا سـرب السـيارات المدرعـة واسـتخدام القـوة الجويـة. إن اسـتخدام هـذه العوامـل مـع قواتـه القبليـة كان يعنـي أن قـوة صغيـرة نسـبياً يمكـن أن تجلـب قـوة نيـران كبيـرة للتأثيـر على العـدو، وكان لورنـس يسـتخدم هـذه القـوة بشـكل كبيـر في المراحـل اللاحقـة مـن الحـرب.

كان لورنـس قائـداً للصحـراء، وقـد سـمحت لـه تجربتـه في هـذه التضاريـس الصعبـة بتطويـر أسـاليب البقـاء على قيـد الحيـاة والسـفر فيهـا، وكان يعلـم أن الاسـتخدام الحكيـم للآبـار (ومسـتودعات الإمـداد لاحقـاً) سيسـمح له بتغطية مسـافات شاسـعة، وقـد اختـار لورنـس بعنايـة الإبـل التـي يسـافر بهـا، ثـم اهتـم فيمـا بعـد بصيانـة السـيارات، كمـا اسـتخدم لورنـس الصحـراء في النهايـة لصالحـه، فبمعرفـة الصحـراء كان يسـتطيع البقـاء على قيـد الحيـاة خـلال الرحـلات الطويلـة، كمـا كان بمقـدوره السـفر عبرهـا، بينمـا كان يعتبرهـا العـدو بيئـة قاسـية، وهـذا مـا جعـل لورنـس يخـرج منهـا بميـزة تكتيكيـة كبيـرة لمهاجمـة هدفـه.

كان هـذا هـو المبـدأ الأساسـي مـن وراء غـارة العقبـة، وكان لورنـس يطبـق هـذا التكتيـك مـراراً وتكـراراً، ولـم يرغـب في تكبـد خسـائر غيـر ضروريـة، مـدركاً أن الخسـائر في صفـوف قواتـه العربيـة سـيكون لهـا تداعيـات أوسـع في المجتمـع العربـي. إضافـة إلـى هـذا، لا يـزال موقـف لورنـس الكامـل مـن إراقـة الدمـاء محـل نقـاش.

بعـض الأحـداث في الحـرب، مثـل تلـك التـي وقعـت في طفـس عـام 1918، توحـي بـأن الحـرب قـد شـددت عليـه وأنـه قبـل بضـرورة إراقـة الدمـاء، وفي الرسـائل الخاصة كان لورنـس أكثـر صراحـة حـول ذلـك. وفي رسـالته إلـى صديقـه (إدوارد ليـدز) كتـب:

"قتـل الأتـراك أمـر مـروع ؛ عنـدمـا تهجـم عليهـم وتقطعهـم إربـاً إلـى أجـزاء صغيـرة، ثـم تجـد بعـد ذلـك أن بعضهـم مـا يـزال على قيـد الحيـاة، ممـا سـيضطرك إلـى إعـادة نفـس الفعـل معهـم وتقطيعهـم مجـدداً."

كانـت علاقـة لورنـس مـع زملائـه الضبـاط متوتـرة في كثيـر مـن الأحيـان، كمـا لـم يكـن متوافقـاً مـع المعاييـر المعتـادة التـي كنـا نتوقعهـا مـن قائـد في زمـن الحـرب، وكانـت هنـاك مصـادر مختلفـة للتوتـر؛ فمثـلاً في عـام 2018 كان هنـاك اقتـراح لاسـتخدام سـلاح الجمـال الإمبراطـوري، لكـن لورنـس أفشـل خطـة مداهمـة كبيـرة أعدهـا جويـس ويونـغ باسـتخدام هـذا السـلاح، بعـد أن حصـل على إذن مـن القاهـرة لخطتـه البديلـة.

كان لورنـس بعيـداً عـن كونـه جماعيـاً، حيـث كان مقتنعـاً فقـط بأحكامـه، والحقيقة أن لورنـس لـم يكـن لديـه خبـرة عسـكرية قبـل الحـرب، كمـا لـم يكـن لديـه أي ميـزة

للعمل في حملة الصحراء؛ لقد جاء بدون أي أفكار مسبقة حول كيفية إدارة الحرب، لكنه استطاع استخدام معرفته للقبائل والتضاريس لصالحه في الميدان. وصفه البعض بأنه مجرد هاوي موهوب أو محظوظ، لكن في الحقيقة كان لورنس رجلاً ذكياً، وكان يصوغ مذهبه الخاص في حرب العصابات الصحراوية في الميدان.



رافق لورنس وفد الأمير فيصل إلى مؤتمر باريس للسلام عام 1919، وعلى الرغم من الجهود التي بذلها نيابة عنهم، فإن القليل من الوعود التي قُطعت للقادة العرب لم يتم الوفاء بها، وأصبح فيصل فيما بعد ملكاً على العراق، بموجب شروط الانتداب البريطاني.

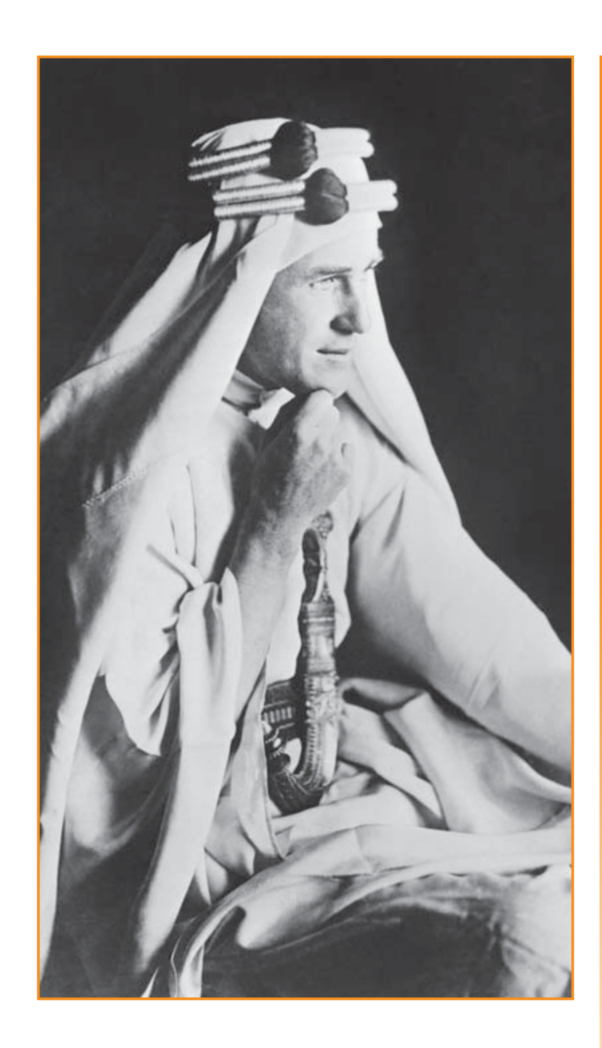
في السنوات الأخيرة، عادت كتاباته وخبراته مرة أخرى في ضوء الصراعات الأخيرة في العراق وأفغانستان، لكن مثل عمليات القياس هذه تتطلب الحذر، فتجربة لورنس كانت بسياق ووقت محددين للغاية، وسنكون متفائلين إذا اعتقدنا بأنه يمكن تقديم نموذج مثل لورنس في الظروف الحديثة.

يجب أن نتذكر أيضاً أن لورنس رأى الحرب من وجهة نظر المتمردين، والمؤيدين الحاليين لمكافحة التمرد بحاجة إلى إدراك ذلك عند دراسته. ومع ذلك، كمدافع عن الحرب غير المتكافئة، لا يزال لدى لورنس الكثير ليقدمه للقارئ الحديث، حيث تؤكد قصته أنه حتى في الصراع غير الدولي الواسع مثل الحرب العالمية الأولى؛ يمكن للضابط الفردي أن يحدث فرقاً، ويمكن أن تؤثر أفعاله على نتيجة الحملة بأكملها.

عندما انتهت الحرب

بعد وفاة لورنس بفترة وجيزة، لخص اللورد اللنبي حياته المهنية في زمن الحرب، قائلاً: "لقد كان باحثاً خجولاً وعالم آثار وفيلسوفاً اجتاحته موجة الحرب في موقف لم يحلم به، وكان عبقرياً في القيادة، وفوق كل الرجال، ولم يكن لديه أي اعتبار للطموح، ولكنه قام بواجبه كما رآه». (الغارديان، 19 مايو 1935).

كان هذا تقييماً دقيقاً بشكل ملحوظ، وعلى الرغم من أن لورنس غالباً ما كان يُتهم بأنه يمتلك طموحاً مبالغاً فيه، لكن الضغوط التي اتجهت نحوه من الرأي العام في فترة ما بعد الحرب قد أصبحت في نظره لا تطاق، ويمكن اعتبار انسحابه الافتراضي من الحياة ورفضه للإمكانيات المهنية في مختلف المجالات كدليل على أن عبء «أسطورة لورنس» كان أكبر من اللازم عليه، ومثل العديد من «المشاهير» منذ



البطل الوطني. بعد العروض الناجحة في لندن لسلسلة أفلام لويل توماس حول الثورة العربية، أصبح لورنس بطلاً شعبياً، في وقت لاحق، نشرت المزيد من الصور الدعائية التي كان منها هذه الصورة، ورأى شهرته تنتشر على الصعيد الدولي.

ذلك الحين؛ يبدو في البداية أنه قد استمتع باهتمام الجمهور، إلا أن هذا سرعان ما أصبح مرهقاً له. ومع أنه اتخذ قراراً بالتخلي عن جوانب كاملة من حياته، إلا أن الرأي العام قد ازداد اهتماماً به، وهو ما ضمن بقاء أسطورته بعده.

ظل لورنس ملتزماً بالقضية العربية على الرغم من شكوكه بشأن احتمالات تسوية عادلة بعد الحرب في الشرق الأوسط، حتى أنه رفض وسام الفروسية احتجاجاً على الطريقة التي عومل بها العرب، وهذا ما جعله في عام 1919؛ يرافق الأمير فيصل في مؤتمر باريس للسلام ضمن الوفد العربي. وبالفعل، كانت شروط اتفاقية سايكس بيكو في زمن الحرب سبباً في إخلاف الوعود العربية، حيث تم تقسيم الأراضي العثمانية السابقة في الشرق الأوسط بين بريطانيا وفرنسا.

خلال عام 1919، بدأ لورنس في كتابة مذكراته عن الحملة ، والتي جمعها من دفاتر مذكراته ومجلداته زمن الحرب، وتم نشرها لاحقاً باسم أعمدة الحكمة السبعة (انظر ص 59 أدناه). وقد استمرت إعادة صياغة هذا العمل على مراحل لعدة سنوات قادمة.

في يونيو 1919، تم تعيينه زميلاً باحثاً في كلية All Souls في أكسفورد، وبدا كما



في عام 1921، شكل لورنس جزءاً من الوفد البريطاني في القاهرة، المؤتمر الذي تم خلاله التوصل إلى تسوية بشأن السخط المتزايد في الشرق الأوسط.

لـو أن لورنـس سـيعود إلـى مسـاره المهنـي قبـل الحـرب كمـؤرخ وعالـم آثـار، لكـن سـرعان مـا جعلـت سلسـلة الأحـداث منـه اسـماً مألوفـاً في بريطانيـا، وسـرعان مـا انتشـرت سـمعته خـارج بريطانيـا، وجـاءت ولادة شـهرة لورنـس على نطـاق واسـع في أغسـطس 1919؛ عندمـا افتتـح لويـل تومـاس عـرض في كوفنـت جـاردن بعنـوان مـع اللنبـي في فلسـطين.

قـام تومـاس بجولـة في الشـرق الأوسـط خـلال الحـرب، وقـام بتجميـع مخـزون مـن الأفـلام والصـور الثابتـة يظهـر لورنـس في بعضهـا. تضمـن العـرض الأولـي محاضـرةً مـع عـرض العديـد مـن الشـرائح إضافـة إلـى بعـض الموسـيقى والرقـص، وسـرعان مـا أدرك تومـاس أن جمهـوره كان مفتونـاً بقصـة لورنـس، فعقـد اجتماعـات مـع لورنـس، الـذي قـدم بـدوره المزيـد مـن الصـور، وكان عنـوان عـرض تومـاس الجديـد "مـع اللنبـي في فلسـطين ولورنـس في الجزيـرة العربيـة". وتـم تأديتـه هـذا العـرض وسـط حشـود مزدحمـة في لنـدن، ثـم قام بجولـة حـول بريطانيـا. وبحلـول عـام 1920، لـم يعـد لورنـس أحـد أبطـال الحـرب الأقـل شـهرة، حيـث تـم ترقيتـه إلـى مرتبـة الأسـطورة الحيـة.

لطالمـا نوقشـت أسـباب ذلـك، ولكـن بعـد سـنوات مـن الحـرب غيـر الإنسـانية والمـوت المجهـول على الجبهـة الغربيـة، مـن الآمـن القـول إن هـذا الشـخص الكاريزمـي كان فاتنـاً وجذابـاً لعامـة النـاس، في حيـن تـم انتقـاد لورنـس منـذ ذلـك



تـم تصويـر لورنـس هنـا في قاعـدة سـلاح الجـو الملكـي البريطانـي في ميرامشـاه على الحـدود الشـمالية الغربيـة لباكسـتان. أدى نشـر هـذه الصـورة التـي التقطـت في منطقـة على الحـدود مـع أفغانسـتان إلـى ظهـور شـائعات في الصحافـة حـول تـورط لورنـس في نشـاط تجسسـي.

الحين بسبب طريقة تلاعبه بالرأي العام. يمكن أيضاً إثبات أنه حاول استخدام شهرته لتعزيز القضية العربية والحث على الوفاء بالوعود التي قُطعت زمن الحرب للقادة العرب.



منذ عام 1932، شارك لورنس في تطوير مركبة إنقاذ عالية السرعة تابعة لسلاح الجو الملكي مثل هذا المثال الموجود بالصورة. هذه المركبة ستعمل في وقت لاحق بشكل فعال للغاية في الحرب العالمية الثانية، حيث ستنقذ طاقم الطائرة.

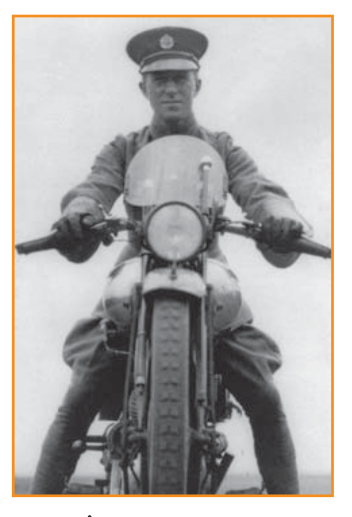
كان العراق قد انزلق إلى التمرد عام 1920؛ بعد أن تم منح البريطانيين إدارة البلاد بموجب شروط انتدابهم، وكان لورنس يتحدث بشكل متزايد عن السياسة البريطانيين هناك، وفي 2 أغسطس 1920 كتب في التايمز:

"لقد تم اقتياد شعب إنجلترا في بلاد ما بين النهرين إلى فخ يصعب الهروب منه بكرامة وشرف، لقد تم خداعهم من خلال حجب المعلومات بشكل مستمر، وكذلك بيانات بغداد متأخرة وغير صادقة وغير مكتملة. لقد كانت الأمور أسوأ بكثير مما قيل لنا، وإدارتنا أكثر دموية مما يعرف الجمهور، إن ما يحصل في العراق وصمة عار على تاريخنا الإمبراطوري، وقد يكون قريباً الوضع ملتهباً جداً ولا يمكن معالجته، ونحن اليوم لسنا بعيدين عن كارثة قادمة».

تـل الغيـوم في دورسـت. تقاعـد لورنـس مـن سـلاح الجـو الملكـي البريطانـي عـام 1935، وذهـب للعيـش في هـذا الكـوخ المنعـزل. (الصـورة بـإذن مـن بيتـر لينـي، جمعية تـي لـي لورنـس).



واصـل لورنـس هـذه اللهجـة، مسـتنكراً العمليـات العسـكرية الفرنسـية في سـوريا، وفي عـام 1921 دُعـي للانضمـام إلـى مكتـب المسـتعمرات كمستشـار للشـؤون العربيـة، وبهـذه الصفـة، رافـق ونسـتون تشرشـل إلـى مؤتمـر القاهـرة في مـارس 1921، حيـث كان أحـد الخبـراء الأربعيـن (أو «الأربعيـن لصـاً" كمـا أشـار تشرشـل إليهـم) الذيـن تـم تجميعهـم على أمـل التوصـل إلـى اتفـاق بشـأن إدارة الأراضـي الواقعـة تحـت الانتـداب.



كان لـدى لورنـس شـغف دائـم بالسـرعة، وأثنـاء وجـوده في سـلاح الجـو الملكـي البريطانـي، امتلـك سلسـلة مـن دراجات Brough الناريـة القويـة، وأثنـاء ركوب مثـل هـذه الآلـة أصيـب بجـروح قاتلـة في حـادث عـام 1935. (مكتبـة بودليـان، أكسـفورد)

شـهد المؤتمـر ختامـاً ناجحـاً للمعاهـدة الأنجلـو عراقيـة التـي تـم خلالهـا تنسـيب فيصـل ملكاً على العـراق. وعلى الرغـم مـن تعرضـه للتهديـد مـن قبـل الانقلابـات والاضطرابـات المختلفـة، إلا أن هـذا الشـكل مـن الحكـم استـمر في العـراق حتـى الثـورة البعثيـة عـام 1958. وعنـد عودتـه إلـى إنجلتـرا، بـدا أن لورنـس كان يـدرك بشـكل متزايـد أنـه لـن ينجـح أبـداً في فـرض تسـوية عادلـة في شـبه الجزيـرة العربيـة، بغـض النظـر عـن مـدى حسـن اسـتخدامه لشـخصيته العامـة واسـتخدامه للصحافـة.

وفي سنة 1922، استقال لورنس من جميع المناصب، ثم اتخذ لنفسه اسم «جي اتش روس»، وانضم إلى سلاح الجو الملكي البريطاني كرجل مجند، لكن الصحافة اكتشفت مكانه فخرج من السلاح الجو الملكي البريطاني، لكنه بعد ذلك التحق بفيلق الدبابات عام 1923، وهذه المرة غير اسمه إلى «تي. إي. شو". وعام 1925، عاد إلى سلاح الجو الملكي البريطاني واستمر في الخدمة حتى تقاعده في عام 1935.



أليك غينيس وديفيد لين وبيتر أوتول في مجموعة فيلم لورنس العرب. كان أوتول يبلغ طوله ما يزيد عن 6 أقدام، لذلك ربما كان لا يشبه لورنس، لكن أداءه استحوذ على العديد من تعقيدات الرجل. (مجموعة المؤلف)

هذا الرفض من قبل لورنس للوظيفة والحياة العامة وحتى هويته الخاصة لم يكن متوقعاً من قبل الكثيرين في ذلك الوقت، ففي عام 1922، كانت العديد من المسارات الوظيفية مفتوحة أمامه، لكنه رفضها جميعاً وسعى إلى التعتيم ببقائه في سلاح الجو الملكي البريطاني، واستمر النقاش منذ ذلك الحين فيما يتعلق بدوافعه، حيث جادل البعض بأنها كانت حيلة دعائية أو احتجاج أخير على معاملة العرب، بينما اعتقد البعض الآخر أن ذلك كان نتيجة ضغوط الحرب

أو كان بسبب خيبة أمل أوسع في السياسة والمجتمع البريطاني، كما تم عرض قضايا مثل الصعوبات المتعلقة بحياته الجنسية وهويته. وعلى أي حال، فإن "تي إي لورنس" الذي أسر الصحافة العالمية والعامة منذ عام 1919؛ قد انسحب إلى عالم أكثر خصوصية بعد ذلك. وقال لاحقاً إنه «تراجع عن السباق وجلس بين الأشخاص الذين لم يكونوا يتسابقون».



ملصق إعلاني عن لورنس العرب. بينما كان لورنس موضوع أعمال درامية من قبل، إلا أن هذا الفيلم حقق نجاحاً دولياً كبيراً وأعاد تقديم لورنس إلى جمهور أوسع. (مجموعة المؤلف)

تظهر رسائل لورنس إلى الأصدقاء المقربين أنه وجد الحياة بهذه المكانة العالية صعبةً، حيث أنه كان قد تكيف مع العيش بين زملائه العسكريين الذين كانوا -على أقل تقدير- "مغبرين" (عليهم غبار العمل والتعب). وعلى الرغم من أنه حاول أن يتخفى قدر الإمكان من خلال العمل في سلاح الجو الملكي البريطاني، إلا أنه استمر في جذب انتباه الصحافة.

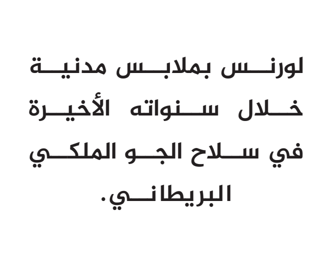
أثار عمله في ميرامشاه على الحدود الشمالية الغربية للهند عام 1928 تكهنات صحفية بأنه متورط بطريقة ما في أعمال تجسسية ضد

أفغانستان، وأثناء خدمته في سلاح الجو الملكي البريطاني، واصل لورنس (أو شو، كما هو الحال) العمل على أعمدة الحكمة السبعة ومشاريع أدبية أخرى، حيث أكمل ترجمةً لأوديسة هوميروس (قصيدة إغريقية قديمة) عام 1932، وبدأ في كتابة مذكرات عن حياته في سلاح الجو الملكي البريطاني، وقد تم نشر هذا لاحقاً باسم "النعناع "كما عمل كمساهم في موسوعة المعلومات البريطانية «بريتانيكا".

لطالما أحب لورنس السرعة، وانغمس في هذا الشغف من خلال امتلاك سلسلة من دراجات نارية من نوع Brough خلال عشرينيات وثلاثينيات القرن الماضي، ووصف فيما بعد عادته في قيادة هذه الدراجات النارية القوية بسرعات عالية بأنها «خطر طوعي»، كما أحب لورنس الطيران، وخلال الحرب وبعدها، قام بالعديد من الرحلات الجوية.

لم يتعلم الطيران مطلقاً، ولكنه عمل لاحقاً على تطوير قوارب إنقاذ تابعة لسلاح الجو الملكي البريطاني عالية السرعة، وطوال سنوات عمله في سلاح الجو الملكي البريطاني، حافظ على مراسلاته مع مجموعة واسعة من الأصدقاء والمعارف. وفي فبراير 1935، تقاعد لورنس من سلاح الجو الملكي البريطاني، ليبدأ مرحلة جديدة من التكهنات الصحفية بشأن مستقبله، وعاش بعد ذلك في كلاودز هيل في دورست، وهو كوخ اشتراه سابقاً. وفي صباح يوم 13 مايو / أيار، تعرض لحادث دراجة نارية أثناء عودته إلى كلاودز هيل من معسكر بوفينجتون، وأصيب بجروح خطيرة في الرأس، توفي على إثرها بعد ستة أيام في 19 مايو.





لورنس بملابس مدنية خلال سنواته الأخيرة في سلاح الجو الملكي البريطاني.

حضر جنازة لورنس حشد كبير، شمل زملاءه العسكريين، وأيضاً شخصيات بارزة مثل ونستون تشرشل وسيغفريد ساسون والجنرال إيه بي ويفيل والعقيد نيوكمب والسير رونالد ستورز وليدي أستور، وقاد شقيقه "أرنولد لورنس» المعزين، كما تلقى برقية من الملك جورج الخامس، جاء فيها: "اسم أخيك سيعيش في التاريخ، والملك يعترف بامتنان بخدماته المتميزة لبلده، ويشعر أنه من المأساوي أن النهاية تأتي بهذه الطريقة مع حياة لا تزال مليئة بالأماني».

ومع ذلك، لم يكن موت لورنس نهاية قصته، فمنذ عام 1935 ظل موضوعه جاذباً للباحثين والجنود وعامة الناس، وقد زاد هذا الانبهار بفضل النشر التدريجي لأعماله، وأيضاً بسبب الحركة الأدبية المتنامية باستمرار، ولا يمر عام تقريباً دون نشر بعض الأعمال الجديدة حوله أو حول الثورة العربية.

في السنوات الأخيرة، تسببت الحملات في العراق وأفغانستان في عودة جيل جديد من الباحثين والجنود إلى حياته، وذلك للعمل على اكتساب نظرة ثاقبة لمشاكل التمرد ومكافحة التمرد في العالم العربي، ومن أبرز المعلقين الحديثين حول هذا الصدد: ديفيد كيلكولين وروري ستيوارت، وكلاهما يشير إلى تأثير لورنس في أعمالهم، ولطالما وفرت حياة لورنس الإلهام لأعمال الخيال والدراما.

في عام 1960، تم الترحيب بمسرحية روس تيرينس راتيجان على مسرح لندن، مع عمل أليك جينيس في دور البطولة، لكن فيلم «لورنس العرب» للمخرج ديفيد لين عام 1962؛ هو الذي أعاد تقديم لورنس للعالم مع بيتر أوتول باعتباره لورنس (طوله أكثر من 6 أقدام، أطول بكثير من لورنس الحقيقي)، حيث أثار الفيلم ضجة سينمائيةً، على الرغم من تبسيطه وإغفاله التاريخي. كان لورنس منذ ذلك الحين تم تصويره على المسرح والشاشة من قبل العديد من الممثلين، بما في ذلك سيمون وارد ورالف فينيس، حتى أنه تم إدراجه في المسلسل التلفزيوني عام 1992 "مذكرات الشاب إنديانا جونز".

إن فصل لورنس عن أسطورته أمر صعب، لكن يمكن القول بأننا نبتعد عن لورنس الحقيقي مع مرور كل عام، وحتى أن أحد هواة الجمع، الذي عثر مؤخراً على قطعة كبيرة من تذكارات لورنس، اعترف لاحقاً أنه كان يعتقد أن لورنس العرب كان مجرد شخصية خيالية! يبدو أن الأسطورة قد تجاوزت الرجل الحقيقي إلى حد كبير.



قبر لورنس في فناء كنيسة موريتون. (التصوير بإذن من إيان هيريتيج وجمعية تي إي لورنس)

حياته في كلمات

عـاش لورنــس حيــاة بعيــدة كل البعــد عــن المألــوف، وشــهد خــلال حياتــه بدايــات مــا أصبــح صناعــة أدبيــة حقيقيــة حــول موضــوع حياتــه والثــورة العربيــة. وبالنســبة للعديــد مــن القــراء، لا تــزال كتاباتــه بمثابــة تعريــف بلورنــس وحمــلات الصحــراء، وبينمــا كان لا يــزال في الكليــة، كان يخطــط لكتابــة تاريــخ ســبع مــدن عظيمــة في الشــرق الأوســط، وكان عنــوان العمــل في هــذه الدراســة هــو أعمــدة الحكمة الســبعة، لكنــه تخلــى عــن هــذا المشــروع لاحقــاً، واحتفــظ بالعنــوان، وقــرر اســتخدامه في مذكراتــه الملحميــة عــن الحــرب العالميــة الأولــى.



تمثــال لورنــس في ثيــاب عربيــة. منحــوت مــن قبــل إريــك كينينجتــون، وتــم وضعــه في كنيســة ســانت مارتــن في ويرهــام، دورســت. (الصــورة مقدمــة مــن إيــان هيريتيــج، جمعيــة تــي إي لورنــس)

وكمــا يتضــح مــن رســائله أنــه وجــد هــذه المهمــة صعبــة، وهــي حقيقــة فاقمهــا فقــده مســودة الكتــاب في عــام 1919 أثنــاء تغييــر القطــارات في محطــة ســكة حديــد ريدينــغ. لكــن علــى الرغــم مــن هــذه الصعوبــات، اســتطاع لورنــس أن يخــرج ثــلاث نســخ مــن مذكراتــه خــلال حياتــه، وكان يقــوم بمراجعــة نصهــا باســتمرار. وفي عــام

1922 طبـع ثمانـي نسـخ فقـط ممـا أصبـح يعـرف باسـم «نـص أكسـفورد» أو «طبعـة 1922»، كمـا أخـرج لورنـس إصـداراً محـدوداً لبعـض القـراء فقـط، وفي عـام 1926 تـم طـرح 100 منهـا فقـط للبيـع العـام، ونُشـرت نسـخة مختصـرة بعنـوان "الثـورة في الصحـراء" عـام 1927، وقـد قوبـل هـذا بموافقـة النقـاد وحمـاس الجمهـور، كمـا نُشـرت طبعـة أخـرى مـن "أعمـدة الحكمـة السـبعة" بعـد وفاتـه عـام 1935 للعامـة مـن النـاس، وظلـت هـذه الطبعـة مطبوعـة منـذ ذلـك الحيـن. ولـم تنتشـر طبعـة 1922 غيـر المختصـرة على المسـتوى التجـاري إلا سـنة 1997.

تمـت طباعـة روايـة لورنـس "النعنـاع" عـن تجاربـه في سـلاح الجـو الملكـي البريطانـي في طبعـة خاصـة مـن 50 نسـخة فقـط، ولـم يتـم نشـرها حتـى عـام 1955 بعـد 20 عامـاً مـن وفاتـه، وذلـك بسـبب مـا أشـار إليـه جيريمـي ويلسـون: لـم تنشـر روايـة النعنـاع بسـبب «لغـة غرفـة الثكنـات» المسـتخدمة فيهـا، والتـي كانـت تحتـوي صـوراً واقعيـة عـن حيـاة الجنـود في الثكنـات يمكـن أن تكـون مسـيئة للأخـلاق العامـة.

وفي عـام 1936، تـم نشـر أطروحـة لورنـس الجامعيـة حـول القـلاع الصليبيـة وأعيـد نشـرها منـذ ذلـك الحيـن. وقـد زاد افتتـان الجمهـور بلورنـس خـلال عشـرينيات وثلاثينيـات القـرن الماضـي مـن قبـل الصحافـة العالميـة. ونتيجـة لذلـك؛ ليـس مـن المسـتغرب أن كل أفعالـه بـدت وكأنهـا تفـرز مقـالات في الصحـف والمجـلات في جميـع أنحـاء العالـم، ولازالـت العديـد مـن أعمالـه في المكتبـات ويقـوم النـاس بدراسـة رائعـة عنهـا.

أثـارت وفـاة لورنـس المفاجئـة عـام 1935 موجـةً أخـرى مـن الاضطـراب في الصحافـة الدوليـة، وحـددت صحيفـة الغارديـان في 15 مايـو 1935 النغمـة العامـة عندمـا قالـت: «مأسـاوي ... أن مثـل هـذه المهنـة الرائعـة كان يجـب أن تنتهـي بحـادث سـير بسـيط». الأيـام التـي تلـت ذلـك، حـاول الصحفيـون الحصـول على اقتباسـات مـن الزمـلاء السـابقين للورنـس، وكان اللـورد اللنبـي هـو الأكثـر رواجـاً. وفي خطـاب ألقـاه في لنـدن، قـال اللنبـي:

"تميـز تعاونـه بأقصـى درجـات الـولاء، ولـم يكـن لديـه أي شـيء سـوى الثنـاء على عملـه، والـذي كان في الواقـع لا يقـدر بثمـن طـوال الحملـة. لقـد كان

النابـض الرئيسـي للحركـة العربيـة وعـرف لغتهـم وآدابهـم وعقليتهـم، وشـارك العـرب في مصاعبهـم وأخطارهـم. ومـن بيـن هـؤلاء المحاربيـن الصحراوييـن الذيـن كانـوا يموتـون دفاعـاً عـن قائدتهـم؛ لقـد فقـد العديـد منهـم حياتـه دفاعـاً عـن لورنـس».



أحـد مقتنيـات لورنـس: أحـد القطـع التـي كان يضعهـا على رأسـه. هـذه القطعـة موجـودة في مجموعـة متحـف الحـرب الإمبراطـوري في لنـدن، وهـي إحـدى المقتنيـات المرتبطـة بلورنـس المحفوظـة في متاحـف ومجموعـات خاصـة متنوعـة، وواحـدة مـن التـذكارات الخاصـة بـه مـن شـبه الجزيـرة العربيـة والتـي أمـن الاحتفـاظ بهـا.

لقـد كان هـذا تلخيصاً رائعـاً لمسـيرة لورنـس المهنيـة، وقـد دعمـت أجيـال مـن الباحثيـن هـذه الأطروحـة أو أعـادوا فحصهـا منـذ ذلـك الحيـن، ووفـرت حيـاة لورنـس مـادة ثريـة لكُتـاب السـير منـذ عشـرينيات القـرن الماضـي، وبينمـا كان لا يـزال على قيـد الحيـاة، كتـب كل مـن روبـرت جريفـز وباسـل ليـدل هـارت سـير ذاتيـة للورنـس

وكان لهـم ميـزة إجـراء مقابـلات معـه وأيضـاً مـع قدامـى المحاربيـن الآخريـن في حملـة الصحـراء.

كان ممـن كتـب في سـيرة لورنـس: باحثـون وجنـود وصحفيـون ومسـتعربون وعلمـاء نفـس وغيرهـم كثيـر؛ حيـث ناقشـت مؤلفاتهـم جوانـب مختلفـة مـن شـخصية لورنـس وعلاقتـه مـع والدتـه، وتعاملـه مـع العـرب، وصدقـه فيمـا يتعلـق بأحـداث حياتـه، وحياتـه الجنسـية ومـا إلـى ذلـك.

قليـل مـن ناقـش قدرتـه الموهوبـة كقائـد حـرب عصابـات أو شـغفه بالقضيـة العربيـة، وتـم سـرد بعـض السـير الذاتيـة المتوفـرة بسـهولة في قسـم «مزيـد مـن القـراءة» أدنـاه، ولكـن هـذه القائمـة ليسـت شـاملة بـأي حـال مـن الأحـوال، ولا تـزال السـيرة الذاتيـة المرخصـة لجيريمـي ويلسـون، والتـي نُشـرت في عـام 1989، مصـدراً أساسـياً لأولئـك الذيـن يرغبـون في الاقتـراب مـن هـذا الفـرد المعقـد.

تعتبـر مجموعـة رسـائله مـورد رئيسـي آخـر لأي شـخص مهتـم بلورنـس، وبينمـا تـم الاحتفـاظ بهـا في أرشـيفات خاصـة في مواقـع مختلفـة، إلا أنهـا توفـرت أيضـاً بشـكل عـام. كان لورنـس طـوال حياتـه كاتبـاً رائعـاً للرسـائل. مـن أجـل البقـاء على اتصـال مـع دائرتـه الواسـعة مـن الأصدقـاء والشـركاء، وغالبـاً مـا كان يكتـب العديـد مـن الرسـائل يوميـاً، وامتـدت قائمـة المراسـلين الخاصـة بـه إلـى جميـع قطاعـات المجتمـع، فشـملت شـخصيات عسـكرية وسياسـيين وكتـاب وفنانيـن وعسـكريين كانـوا معـه في سـلاح الجـو الملكـي البريطانـي. وكان مـن بيـن مراسـليه ونسـتون تشرشـل، ولـورد ترينشـارد، ونويـل كـوارد، وجـورج برنـارد شـو، وزوجتـه شـارلوت، وإي إم فورسـتر، وأوغسـطس جـون، وغيرهـم.

بالنسـبة لأولئـك الذيـن يبحثـون عـن نظـرة ثاقبـة عـن حياتـه ومهنتـه وشـخصيته، فـإن هـذه الرسـائل لا تقـدر بثمـن. في عـام 1938، نشـر إدوارد جارنيـت مجموعـة محـررة مـن رسـائل لورنـس تحـت عنـوان رسـائل تـي إي لورنـس. كمـا قـام مالكولـم بـراون، وهـو باحـث قديـم حـول لورنـس، بتحريـر مجموعـات شـاملة أخـرى مـن الرسـائل، والتـي نُشـرت في لنـدن (1988) ونيويـورك (1989). إضافـة إلـى هـذا، تـم تحريـر مجموعـة أحـدث مـن قبـل مالكولـم بـراون ونشـرت باسـم لورنـس العـرب: الحـروف المختـارة (2007).

هنـــاك الآن العديـــد مـــن الرابطـــات والجمعيـــات في جميـــع أنحـــاء العالـــم التـــي تكــرس أنشــطتها لفحــص حيــاة لورنــس. ومــن أبــرز هــذه المنظمــات جمعيــة T. E. Lawrence ومقرهــا أكســفورد، (موقعهــا الرســمي: http://telsociety.org.uk/telsociety/ index.htm) أمـا المصـادر عبـر الإنترنـت فهـي عديـدة بالفعـل وسـيكون مـن المسـتحيل سـردها جميعـاً. هنـاك واحـد مـن أكثرهـا شـمولاً هـو موقع تـــي أي لورنـــس للدراســـات: (http://telawrence.net/telawrencenet/index.htm) وهــذا الموقــع مرتبــط بكاتــب ســيرة لورنــس جيريمــي ويلســون.



تكمن أهمية هذا الكتاب في أنه يغطي جانباً مهماً في الحرب العالمية الأولى بين القوات العربية المدعومة من بريطانيا ضد الخلافة العثمانية، كما يتناول بعض التكتيكات الحربية التي استخدمها لورنس أثناء ما سمي بالثورة العربية الكبرى، وميزته أنه يتناول هذه التكتيكات أولاً من باب توثيق الأحداث بالوقائع التاريخية الدقيقة والتواريخ المفصلة، مع توضيح ذلك بالخرائط. كما يتناول أيضاً كيف كان لورنس يستفيد من حرب العصابات ضد الدولة العثمانية، وماهي نقاط الضعف التي كان يركز عليها.

